محمد الباردي

قمح افريقيا

...بة محرزة على الجائزة الاولى لنادي «ابي القاسم الشابي»

موسسة سعيدان للطباعة و النشر
سوسة ـ الجمهورية التونسية





قمح افريقيا

رواية محرزة على الجائزة الاولى لنادي «ابي القاسم الشابي»

موسسة سعيدان للطباعة و النشر

سوسة ـ الجمهورية التونسية

قمح افريقا

(رواية)

الاهـــداء

إلى والدي وأخي علي
اهدي هذا الكتاب

هذه الرواية

عندما شرعت فى كتابة هذه الرواية منذ ثلاث سنوات خلت لم أكن اعتقد انها ستنتهي على هذا النحو لقد صغتها ثلاث مرات وفي المرة الثالثة فقط اقنعتني وعندئذ وجدت الشجاعة الكافية لوضعها بين يدي القارىء الكريم .

وهذا يعني اني في هذا الأثر الجديد تركت بعض ما اتّصفتْ به كتاباتي السابقة من عفوية وسعيت إلى التفكير في مسألة الشكل بأكثر جدّية . ولست زاعما اني في هذا الأثر متفرد ولكني متأكد من أنني وجدت الشكل الذي يخصني ويخص الفكرة التي أود ابلاغها لمحاولة الاجابة عن سؤال يعيش ملحا في ذهني : «من سيقرؤها؟» والشكل عندي ليس جبة محفوظة في دولاب التاريخ بل هو قميص يتغير مقاساته بتغير حجمي يبحث عن الانسجام ويرفع الاسقاط ولئن استفادت هذه الرواية من بعض عناصر الحكاية الأدبية القديمة كالاستطراد مثلا فلكي تصهرها في السياق الروائي الحديث وبذلك فهي تفضل المواجهة على الاختفاء وراء الاشكال القديمة المسقطة ذلك أن الكتابة تظل عندي دائما موقفا .

المؤلف

المقطـع الأول

تصوّر الآن الوضع الذي أنت فيه . السيارة تسير بين ضجيج السيارات الأخرى وضجيج الناس والشرطي أمامك يضحك مع زميلة . وقعت المصيدة يا حمدي وقعت الآن في المصيدة . وحدك فى هذه السيارة التي تسرع مع هذا الشرطي الذي يود أن يشوي لحمك أو يقطعه و يرمي به إلى القطط والكلاب السائبة . هذا الشرطي يكفّ الآن عن الضحك و ينظر إليك كأنّك غريمه أو بينك وبينه ثأر قديم . قصتك مع الشرطي لا تنتهي إنّهُ الوهم ! « ما أنا بغريمك وقصتي ليست معك ولا مع الذين أرسلوك لمطاردتي قضيتي أكبرُ » أنت الآن مُحاصَرٌ ، هذا العالم وضعك بين فكيه وهو قادر بعد قليل على طحنك كحبة القمح التي حلمت بها كثيرا في قلب الرّحى . ولن ينفعك أمرٌ ، لا صلوات تلك العجوز ولا دُعَاءُ ذلك الشّيخ الرّابض على أَلَمِهِ . « يَا ولدي النّافع رَبّيَ ، ربيّتُك لتحمل هَمّي وها هى الأيام تَمرُّ وأنت كالثور الْهَمَجِيّ وها أنا أزحف نَحْوَ القبر وأنت لا تزال تركب رأسك ... النافع ربي » . من السجن إلى السجن ، كنت تقرأ رسائله إليك ذات يوم وأنت وراء القضبان « لو كنت معي هنا لما أخذوك مني ... لو كنت معي لخبأتك في بطن الارض .. المدينة كبيرة وأنت وحدك ، والناس ليسوا ككل الناس ومع ذلك ركبت رأسك كالثور ماذا فعل لحاسو القلم ..؟ الحقُّ عليَّ أنا الذي شجعتك » وأنت الان تشق

طريقا أردتها بنفسك لِتَثْأر لكل المظلومين والمطحونين في هذا العالم . تذكره كيف كان يخاطب أمّك ...

ـ لولاك يا مرا لكان الولد معنا .

ـ وماذا نصنع به معنا ؟

ـ يبقى معنا هنا في البيت وَفي الحقل .

تُريدُهُ غابَاجي مثلك عاريًّا حافيا ؟

ـ ولكنه سَيُسَافِرُ بعيدًا يا مرّا .

ـ دعه يسافر حتّى يصبح مثل خاله . ثم أنت أيضا سافرت .

ـ خاله .. ؟ لحّاس قلم قلت لك يا مرا أنا لا أثق في لحّاسين القلم ..

ويعود إلى تلك الحكاية القديمة ... خالك خالك ! وتظل تفكر « لا يمكن أن تفهمني أبدا ، لمن أفنيت هذا العمر يا أبي ؟ لك أنت ولغيرك من المطحونين يا أبي ولكنك لن تفهمني ... خمسة أعوام في السجن ، وَجَعُ الدِّماغ والصُّور التي تلاشت في مخيلتي والحيرة التي تقتل القلب وتبلُّدُ الذهن وقصتك مع صهرك لا تنتهي ... خالك .. خالك ! »

الشرطيُّ أمامك يعبس قليلا ، يأخذ سيجارة ويشعلها . صوت أبيك يأتي من الدّاخل .

جائني خالك ذات ليلة ، ءانت أمّك تطبخ الشّاي وتضحك كالعادة فقد كُنّا رغم فقرنا سعيدين«الدّنيا فانية ونحمد الله على فقرنا وسلامة صحتنا ، تناول الكاس وقال :

ـ يا راجل أختي ما رأيك لو ساعدتك على شراء بقرة ؟

ـ ماذا أصنع بها ؟

ـ ترعاها وترعاك .. تخرجك من الفقر ويُصْبِحُ لك من البقر قطيعٌ .

ـ يا صهري أنا رجل فأسٍ ومسحاة لا أعْرِفُ إلا الأرض . البقر يحتاج إلى مرعى وإلى علف وأنا وحداني ولا أقدر .

وظل يأتي اللّيلة بعد الليلة ..
ـ البَقَرَةَ ستُخْرِجُكَ من الفقر يا راجل أُخْتِي
ـ أنا راضٍ بِفَقْرِي بربّك دعْني ...
وألحت أمّك وعاتبتْ وكانت تقول لي ...
ـ أخي مُوَظفٌ كبير في الدولة يعرف العُمْدَة والكُتاب والشرطة ورجال الحُكومة ، يحترمه الجزّار والبقال .

وكنت العنُها دائما :

ـ دعينا من رجال الحكومة ... رجال الحكومة .. رجال الحكومة .. ماذا صنع رجال الحكومة ؟ حتّى ولدك لوْ أصْبحَ من رجال الحكومة لما صنع لنا شيئا .

لكنّها كان يَركبها ذلك الكبرياء الكاذب .

ـ ها هو خويا من رجال الحكومة ومع ذلك ساعدنا على شراء البقرات .
ـ اللّعْنَةُ علَى البقرات وددري البقرات وبائعها يا مرا لسنا من أهْلِ الأبْقار هذه الأبقار حُصيبة . أُنْظُري ماذا فعلنا ، للم نُغيّر شيئا الحُجرة الضيّقَةُ والمطبخ وأنا وأنت والولد وأخوك الذي يقف وراثنا ؟ وماذا بعد ذلك ؟ آه ، آه الولد لو بقِي معنا الولد لفعلنا شيّئا . لكن .. »

نشأت في هذه العائلة ، كنت الأمل الذي ظهر شمعة تضيء أركان الحجرة القاتمة . كانت الأم وهي تجمع لك أدواتك المدرسية والمبعثْرة وتحسوها في محفظتك تغضب وتقول :

ـ أخشَى ألاّ تُصْبِحَ كخَالك يا ولدي .
وتسألُها بعوية :

ـ وماذا يَفْعَلُ خالي ؟
ـ خالك يلبس الكُسْتيم ويجلس وراء بيرو كبير أمامه التلفون ويأتيه الأصاغر والأكابر ، يأمر وينْهَي .
ـ ولماذا يفعل كل هذا ؟
خلك موظف كبير قد الدنيا

ولمّا تراك تطرق مفكرا تحتضنك وتغرق وجهها في صدرك وتقول :
ـ لا أريدك فلاحًا حافيًا

وكنت تراها تتألّمُ وقد دخل أبُوك البيت عند المغرب :
ـ يا مّرا سطل ماء سخون
ـ ما عنديش حطب
ـ الحطب في الدار مالي الدنيا
ـ حطبْ يدَخِّنْ اشرِي لِي بابُور
ـ بابُور بوك ما نيش مركانتي كيف خوك ، هات الماء السخون .

وكنت تراها وهي تنهض تجمع الحطب في ساحة الحوش ولما يغلي الماء يرمي أبُوك قدميه المتعبتين ويضل صامتا .

وعندما كبرت أحسست أنّ جَبَلاً من الصمت فوق قلبك ، وكان عليك أن تذيب هذا الجبل وكان التنظيم الدفْء الذي بَدّد هذا الصمت :
ـ « ماذا يحتاج هذا العالم لكي يكون جميلا ؟
ـ الخبز لكل الأفواه وبقر البطون المنتفخة
ـ ولماذا تبقر البطون المنتفخة ؟
ـ حتّى يستوي الناس ويزول الاعوجاج .

ووجدت نفسك في دار الطلبة تسقط المناشير من فتحات الأبواب وتراود

العسس وتخاتلهم وتستلْقي على الفراش متعبا قبل طلوع الفجر. جئت في البداية وبعدك جاء تسعة وماتوا قبل السنتين، وكان الجيران والأهل كلما مات واحد يجيئوان إلى أمك ويقولون:

ـ «هذا الولد هو الّذي قتلهم جميعا، أذهبي إلى الحمازنة واكتبي له: ولكنها كانت تغضب عندما تسمع هذا الحديث فتقول:

ـ هذا نصيبنا من الدنيا، ماذا نصنع، أمْرُنَا لله.

وذات يوم في الصّباح الباكر أخَذَكَ أبوكَ من يدك وقد ارتديت سروالا جديدا وأركبك وراءه على البغل ودخل بك أحياء المدينة فلما وصلت إلى المدرسة الخيرية قفزت من فوق ظهر البغل وبكيت فنظر إليك نظرة أفاضت بركة الحنان في قلبك:

ـ لا تبك يا ولدي أنت رجُل الآن، هذه المدرسة عِنْدَما تفتح أبوابها أُدخلّها ستجد فيها من يعرف الله ويعينك.

ولما انفتح الباب وجدت نفسك بين خليط من الأطفال فيهم من يشبهك وفيهم من لا يشبهك ومع ذلك وجدت نفسك تضحك مع الأطفال الفقراء الذين لا يحملون محافظ جلدية بل قفافا صغيرة من سعف النخيل.

ولما ضحكت في الصف هرع إليك المعلم وصفعك على خدك:

ـ يا ابن الكلب أنت لا تدْفع مليما وتضحك..»

قهقه الأطفال ومنذئذ ركبك جبل من الصمت بارد برد الثلج ولما عدت في ا ء ارتميت في أحضان أمّك باكيا فأخذك أبوك وأجلسك أمامه:

ـ «الفقر يا ولدي ليس عيبًا ولكن العيب أن تَبْقَى جاهلا مثلي»

عندئذ ابتسمت وأقبلت على الكُتَّاب تريد أن تمتص الحروف المرسومة على صفحاته والصّورَ لكنك لم تكن تفهم كل شيء. وذات يوم كانت رؤوس التلاميذ فوق الكراسات وقف المعلم ووضع يده على كتفك وقال

ـ من يعلمك في البيت ؟

أجبته بدون أن ترفع رأسك « أعلمُ نفسي »

اتَّجه نحو مكتبه وقدم لك مجموعة من الكتب :

ـ « هذه الكتب لا تنفعك إلا أنت ، خذ اقرأها »

لما مددت يدك لتأخذ منه الكتب أحسست أن الجبل بدا يذوب فوق صدرك وفركت مكان الصفعة فتدحرجت دمعة على خدّك . في تلك السنة أنهيت تعليمك الابتدائي وجاءك أبوك لكي يقول لك :

ـ « ما كنت أريدك أن تسافر ، لكنهم فتحوا في المدينة معهدا فافعل ما تشاء »

وفي السجن لم تَمَّح يوم صورة أبيك « خالك أوقعني في الفخ ما كنت أظن أنه سيفعلها لقد فتح لي في الجنة ذراعين قال لي سأصبح معمرا ، سأملك قطيعا ، سأبْني معمَلا لصنع الياغورت والحليب وجاءني بالبقرتين فأكلتا ماعندي وجاءني كالعادة ذات ليلة.؛ قلت لك يا ولدي أنا لا أثق في لحاسي القلم علّمتك حتّى تنظر إلى جانبيك ولكن أنت الآن أين ؟ قلت لك جاءني هذه الليلة وقد كنت متعبا ولكني مع ذلك كنت أشْربُ الشاي كالعادة ، جلس أمامي وقال :

ـ يا رجل أختي أنت الآن في [illegible] وأنا الله أعلم بحالي .

ـ الخير عند الله وماذا أصنع لك ؟

ونصيبي ... ؟والله وعمل فيَّ ..

في السجن كان الرفاق يتجادلون دائما وأحيانا ينقلب الجدال إلى صراع عنيف وسب وشتم .

ـ رعاة البقر وحدهم الامبرياليون .

ـ ليسوا وحدهم . الامبريالية الجديدة أدهَى .

ـ والصّين بعد ماو ؟

بدا زمن التحريف .

ويعتبرك ذلك الغضب الذي يَسْتَيْقِظُ أحيانا :

ـ اللعنة عليكم جميعا ونحن ... ؟

وتقف أمام الصفيحة وتبول وعندما يَهْدَأ الجدال تعود إلى نفسك فترى ذلك الوجه المُجعّد الذي صارع الحياة طويلا « والله فعَلَها يا ولدي ، لَعَنْتُهُ في تلك الليلة وظللْتُ أسبوعًا كاملا ألْعنه ولكن لم يكن بيدي حيلة ، كل الجيران يعلمون أنّه ساعدني ، لقد سلمته محصول الدخان كله وأضفْت إليه ما بعته من الكنْتَرة وزادني شيئا من عنده وشاترى البقرتين ، والله ما بيدي حيلة ، كل الجيران يعلمون أنّه ساعَدَني ، لقد سلمته محصول الدخان كله وأضيفْتُ إليخ ما بعثه من الكنْتَرة وزادني شيئا من عنده واشترى البقرتين ، والله ما بيدي حيلة ، الجيران يعلمون ، ظلت أمك آسبوعا كاملا تبكي :

ـ أتركه معك شريكا ودعنا من المحاكم ، نحن لسنا أهل المحاكم ـ الحق معها . لم يكن أبوك رجل محاكم . إمّا أنْ أخلص أمري بيدي أو أترك أمري لله ، وتركت أمري لله . ظللت سنة كاملة أعرق وأقسم المحصول شطرين إلى أن جاءت المصيبة ـ لقد ماتت البقرة الرمادية التي كنت أخرج السطل من تحتها ملآن . نعم يا ولدي ، إنك تعرف تلك البقرة الرمادية التي كنت أعزُّها كثيرا ، لقد حسدني عليها الجيران ، كانوا يرونها كالمرأ في ليلة دخلتها . إنها عروس والله عروس . لقد مرضت يوما واحدا ولما جئت بطبيب الحكومة لم يمنحني الا رُخْصَةً في ذبحها ، لقد بكيت عليها طويلا ولكن خالك لا يعرف الرحمة . لقد اشاح وجهه قائلا :

ـ أنت السبب ما أنت برجل بقر والتي ماتت من نصيبك .

ـ ولكن أنا الذي ربّيْتُ ؟

ـ كنت أعلم من قبل أنّها من نصيبك ، لقد كنت تدللها .

لم أستطع أن أفعل شيئا يا ولدي ، كانت أمّك تلح علي دائما :

ـ « لسنا أهل محاكم ودعنا من الفضائح » .

أمري لله يا ولدي وأنت قد أخذوك مني ماذا أصنع ؟

كنت تعلم أنك لا تستطيع أن تفعل شيئا . عندما أخذوك لم يصلك استدعاء وانما جاءك شرطي كهذا الذي يجلس أمامك الآن وأركبك سيّارة وفي الطريق حذّرك ـ نريد كلّ الأسماء «كان اعتقالك مُفاجأة فما كنت تعتقد أن ذلك سيتم بهذه السرعة . قدّموا لك مجموعة من الأسماء ولأوّل مرّة أحسست أنّك أمام امتحان عسير .

هل تعرفهم ؟

ـ هم أصدقاء الدّراسة لا غير .

صفعوك ، عزلوك أسبوعا كاملا ، عذّبوك ثمّ جاؤوا بك في النّهاية .

ـ نريد البقية ، نريد الزّعماء .

ـ ليس لنا زعماء ... لا أعرف .

أعادوك من جديد إلى الزنزانة ، ظللت طوال الليّل في دوامة العذاب . ألْوان من التّعذيب رأيتها ولكنك في النّهاية أصبحت قطعة خشب ألقي بها في النّهر . وعندما وجدت نفسك بعد أيام في ساحة السّجن مع بقيّة الرّفاق أحسست أن الحياة بدأت تنمو في نفسك شيئا فشيئا ومع ذلك شعرت بأن جبل الثّلج أرتمى على قلبك من جديد :

ـ ما كنت أعتقد أنهم سيفعلون بي ما فعلوا

ـ لست الأول ولا الأخير .

ـ لكنّهم أهانوني . الجسد يَصْمُدُ لكنّ النفس ...

ـ عندما تخرج ستنسى كل شيء ، سنوات تمضي ولا يبقى السّجن إلاّ صورة عائمة في المخيّلة .

ـ كل شي يمضي إلا الاهانة . الاهانة أثرها لا يزول .

وفي ساحة السّجن بين الحيطان الأربَعَة الشاهقة كنت دائما تنظر في نفسك المنكسرة وكنت كلّ يوم تشعر أنّ شيئا في نفسك يتحطم . الجدران الصّلبة وقسوة الحرّاس والرّفاق الذّين يتجادلون . سجن الحكومة يهون ولكنّ سجن النفس هو الأمر . ويعود إليك بقية الرّفاق :

ـ يَا حَمْدِي ! عد إلى نفْسك ، لقد تعذّبت لكنّك صمدت ، لم تسيء إلى أحد . بعضنا إعترف ولكنك لم تفعل فلماذا هذا الهمّ الرّابض في القلب ؟

ـ لا أدري ماذا فَعَلْتُ حتّى أعذّب وأُسجن ؟

ـ لست وحدك المسجون فلماذا عذاب النّفس ؟

لم يكن أبوك يعلم أن ما حدث سيحدث . « لم أملك شيئا يا ولديْ البقرة الرمادية ماتت والأخرى أخذها ، باعها بثمن باهض ولم يُبْقِ لي شيئا ، الأرض وحدها وأنا كبرت وانت الآن في السجن وأمك التي تذكرك كل ليلة وتبكي » .

ظللت خمسة أعوام في السّجن . خمسة أعوام بين الأسوار الأربعة والحراس والرّفاق الّذين يتجادلون وفي النّهاية جاءت الرحمة :

ـ حمدي رجب خذ أمتعتك وأخرج .

وكانت النسائم تسري رودا في ساحة السجن وكان في كل مرة ينفتح بابٌ من أبواب الزنزانة وأصبح الحراس يبتسمون ويؤدون التّحيّة أيضا . أجلسك المدير أمامه في المكتب ، قدم لك القهوة ، رمى فيها ثلاث قطع من السكر وقال :

ـ لقد سملك العفوُ أهنئك .

لم تبتسم وعندما خرجت من السجن أحسست أنّ أشعة شهر أَوت عاجزة عن إذابة جبل الثّلج الذّي على صدرك . هذا الشرطي أمامك ينفخ دخانه ونظر عبر النافذة البلّورية إلى الناس الّذين يمشون على الأرصفة ويتمنى لو يَستّل الأسنان من

أفواه الناس جميعا ، أن يرميهم جميعا في السجن ويتهمهم بتهم العالم جميعا أنت الآن كالفأر في هذا القفص الذي يتحرّك . مسير ساعات وستصل وسيرمي بك في مكان ما من المعتقل ولكن هذا لا يهم ، ظلت السيارة تمضي ببطىء . الشرطيّ أنهى سيجارته والتفت إلي السّائق يُحدّثه عن مغامرة مع عشيقته الجديدة الليلة البارحة . وكان السّائق يفتح شدقيه ضاحكا . القلب مطمئن على سلامة المجموعة فلماذا الإسراع ؟ أنت بدورك الآن مطمئن . لقد أحرقت هذا الكابوس الجاثم على صدرك وكشفت هذا الزّيف . رفعت قطعة القماش ، كاراكوز مضحك الصّبية ظهر على حقيقته .

دائرة الضّوء تتّسع حولك .
تسقط في أعماق النّور الخافت
تشرق شمس الغد في حمرة أرجوانية
لكنّك تظل صامتا
هكذا اعتدت كلّما مرّت فوق جسدك دوائر ضوء
اليوم العاشر بعد الألف
وذا كرتك تعيد نفس الحكاية
كلّ شيء يصرخ حولك معتادا معتادا
حتّى أنت لم تعودي تملئين ساحة حزنة
صارت عيناك محارة زرقاء
ناح الألم الأكبر
تكلّم الوّطَنُ .

يا بِنْتَ التّاجر بنْتُ التّاجر باعت جسدها لرجل من **طبقتها** . أبوها وافق أمّها وافقت ، جميع النّاس وافقوا لكنّها كانت واضحةً قالت **لك** :
ـ الحبّ شيء جميل . لكنّنا لا نأكل حبًّا .

في وقت أصبحت عنيفا ، كنت ريحًا عاصفة زمع ذلك فإن بنت التأجر دمّرتك عندما تزوّجت بكَيْتَ ، كانت بنا التاجر صريحة واضحة رغم صغر سنّها . أحبتك على طريقتها . ذات مساء أسلت اليك « أهلي يغيبون هذه الليلة سأكون مع أبنة عمي ، لا تخش منها ، أنتظرك « لم تفكّر طويلا ، العسس والجيران وفوانيس الليل . لا أحد يستطيع أن يقف أمامك . قد تقع في القفص ولكنّك كنت مُستعدا لكل شيء . على السّطح مشيت ومن السّطح فقزت . كانت في انتظارك قالت لك :

ـ لقد أخفتني ...

ـ ها أنا أتيت ...

ـ ولكني لم أفتتح لك الياب

ـ لماذا ؟

ـ لأن من يحبي يجب أن يأتي ، أو يأتي حتّى وإنْ دقّ عنقه .

هيّأت نفسها لهذه الليّلة . « الليّلة ليست بنت التاجر ، اجلس يا فارس ضع رأسكَ على صدري . أعْصِرني أفنَنَي » مددْتَ يَدَكَ ، فتحت الزّر ، قامت القيامة ، « يا عزيزتي يا بنت التاجر . يا ناري الكامنة في صدري يا رياح العاصفة في ليلة باردة ، يا عزيزتي يا بنت التاجر يَا عُنْفَي الذّي يعاودني في كلٍّ لَحْظةٍ . « كان السرير الفاخر نارا حارقة . الجسد يفني الجسد . الشفتان تنهش الشّفتين القَيامَةُ قامت ، ردّتْ على العنف بالعنف . قامت وكان شعرها يغطي وجهها ثمّ انقضّت من جديد على الشّفتين ونظرت في عينيك .

ـ جسدي منحتُه لك وحدك وليس لي شيء آخر يُعْطى

ـ لكن ...

ـ هيّا إنصرف لم تترك شيئا لغيرك .

وبكت هي أيضا . بنت التاجر أيْضا تبكي ، رمت رأسها على كتفيك وبكت فارسي . يا فارسي ! لكن الفرسان ليسوا وحدهم أبناء القبيلة للقبيلة شيوخها

وحكاؤها ، لكي تأخذني يا فارسي يجب أن يقبل شيخ القبيلة . لكنك فارسي لا تستطيع ، سيشترط عليك شيخ القبيلة مائة ناقة وناقةوتشق البحور لتبحث عن حوت ذكر غير موجود فيها ، وتشق الصحاري ويتعب جوادك والتفاحة يأكلها غيرك . « بعد أسبوع فهمت لماذا بكت بنت التّاجر ليلتئذ كانت صادقة . لم تستطيع أن تكذب نسيت درس شيخ القبيلة .

ـ « الفارس هو ابن الأصل والفصل »

ـ ما هو الأصل يا شيخ القبيلة ؟ »

ـ « الأصل متجر كبير فيه البضاعة المهربة ، الأصل هنشير زيتون . الأصل موظف كبير كبير واصل يسرق أموال الشعب ولا يقبض عليه ، الأصل مقاول كبير يملك سيارة له وأخرى لزوجته وثالثة لأطفاله ويخصص منزلا لعشيقته . »

بعد أسبوع وقفت السيارة أمام منزل الجيران . جاء صاحب الأصل والفصل . مقاول أثري مع صدور القوانين الجديدة وانتزع الحلم الّذي راودك طويلا واغتصبه اغتصابا . أمواج البحر تَرْتَطِمُ على الصخور وتفني . العُهْرُ نَابعٌ فينا ، في كل بيت من بُيوتنا ، في كلّ وجه من وجوهنا فلماذا العجَبُ ؟..

حياة وحدها وضعت الكمّادة على الجرح ، ليست كبنت التّاجر ولا كخليلة السّائق الّذي يجرك الآن إلى مصيرك . حَيَاة امرأة من صنف آخر لم يعرفه هذا التاريخ وهو كمّادة دائك ومُصِيبَتِكَ . أغمض عينيك قليلا . الدّوار يلعب برأسك . ما أضيق هذا العالم عندما يفقد الإنسان حريته ! لكن كاراكوز ظهر على حقيقته وكشف سته للمتفرجين .

كانت تفتح النافذة أمامك ، من خلال النافذة المقابلة تبدو مغرية . يلعن دين هذا العالم المرأة امرأة ، مهما فعلت فهي امرأة . اللّيل والأباجرة في لون الشفق والجسد المرمري وأنت وراء النّافذة الأخرى تصطلي بنارك . النّاس كلّهم في هذا الحي يعرفون حياةً . اسمها على كل لسان يعرفها التجار خاصة . حكايتها مع التجار .

حكاية . جاء شكري عبد الرّحيم ولد كبير التجار في الحي ويكتب في الصحافة الوطنية وهي معه . طَرَقَا عليك الباب بعنف . فتحت . الفرحة بادية على الوجهين لكنك ارتعشت عندما لاح الوجه القمري ، وانفرجت شفتان عن ابتسامة في عمق الكون فهل يمكن أن تحب في هذه الحالة ؟ .

يا حمدي ! المشروع . اتصلنا بتُجّار الحي . كلّهم وافقوا .

ـ أي مشروع ؟

ـ لقاقو الثّلث وللتجار الثّلثان ويصبح المعمل للجميع . الحيّ وحْدَهُ صاحب المعمل .

ـ عمل إصْلاحي ... خرافة .. !

وصاحت حياة في جهك .

ـ كل شيء عندك خرافة ، حتّى أنا التي أمامك خرافة .

وكنت تتخيّل كيف أقنع شكري عبد الرحيم التُجّار .

ـ « يجب أن تكونوا طرفا في المشروع ، نريح بنات الحي من النُّزول إلى الأحياء الأخرى البعيدة ونمنع الفتيان من التسكّع ، نُوَفِّرُ الكساء للبلد ونُصَدِّرُ ما زاد عن الحاجة إلى البلاد الأخرى وأنا أدير لكم المصنع ، أموالكُم مضمونة وستزيد » .

منطِقٌ إصيلاحي فيه شيء من الأخلاقية والانتهازيّة أيضا . هذا لا يهُمّ ولكن الضّربة جاءته في الصميم . صخب الأمواج يَتَحَطَّمُ على الصخور . عاد إليك صامتا :

ـ المشكلة تعقَّدَتْ . التجار سحبُوا أموالهم ، قالوا أموالنا في البنوك ولا تضيعْ .

ـ كيف حدث هذا ؟

الضَّرْبَةُ جاءت من كبير التجار وكبيرُ التُجَّارِ عبد الرحيم بن عبد الرّحيمُ وتخيّلُ الموقف التّالي والحوار بين الوالد وابنه :

ـ أي معمل يا ولد؟

ـ معمل كبير يُلْغِي البطالة ويُركّز الصناعة الوطنية .

ضحك التاجر الكبير :

ـ عبارة يا ولدي ، عبارتان أو ثلاث أفضل يَا ولدي ونرتاح من إضرابات العمال . منطق سياسي أيضا ولكن المعمل سَيَشْتَغل رغم أنف التُجّار ورغم أنف قاقو المَدْفُون في عزلته وشكري ولد كبير التجار سيقتنع يَوْماً . وتظل تفتح النّافذة في الليل وفي النهار ولكنّك كنت محاصرا . لكل علّة سبب وأنت سبَبُ كل العِلَلِ ، سَرَحُكَ مؤقت والعيون تراقبُك من كل جانب ، أو مات جملٌ في قلب الصّحراء لكُنتَ قاتله ولو سقط فأر من فوهة المزاب لكنت الجاني ـ التُّهَمُ عديدة وكل واحد منها ستستَعْمَلُ في الوقت المناسب ستّتهم بأنّك رجل فضائح وستفضحك هذه الأوراق والجذاذات والوثائق المُبعثرة في كلّ مكان من أرض تلك الغرفة الضّيقة « علوان بوزيد يَا حُلْمَنا المريض ، يا قطعة التراب على الأرض الصّلبة علوان بوزيد يَا قطر النّدَى على ورقة خريفية الفصل ! أيّها الناس الّذين أعرفهم والّذين لا أعرفهم أنا وحْدي أحدّثكم عن علوان بوزيد كان علوان بوزيد شاعرا .

أراكَ يا وطني غابة أدغال .

تفترس من يقتل الحب في قَلْبي .

من يغتصب حُلْمي ...

وَيكبُر الشبل

يكبُر ، يكبُر ، يكبُر

ويصبح الشبل سيد الغابة

وفي الغابة تحرق الأشواك

ويبتلّ الكِلْسُ

وأنا يا وطني بو أحوال

الخبز والزّيتون
دمي
والفرحة جائمة على صدري .

كان علوانْ بوزيد شاعرا ، ترك الأرض [illegible]
زمنِ الشِدَّةِ ، كان على الصخرة وسط [illegible]
السَّحاب المتصاعد من مداخن [illegible]
« يا أبانا نريد أن نشبع نريد أن [illegible]

وكانت المداخن تغريه :

ـ « فذلكة ومرّت ، لا تعاضد ولا [illegible]

وقف العمدة في الحيّ أمام الفلاّحين [illegible]

ـ « الملاك ملاّك والثلاث ثلاث [illegible]
اشتراكية بوه » .

ظل علوان بوزيد يعمل نصف عام [illegible]
يجلسون معا تحت ظل الغرسة التي سيهجرون عليها [illegible]
أصابعه ويقول :
ـ هذه هي الاشتراكية لو ...
ـ وآش هي الاشتراكية يا علوان ؟
ـ أن نقْتسم الجهد والثمرة ولا يحكمنا العمدة .

ولكن الحُلم ضاع بدأ أزيز المعامل وبدأت المعامل [illegible]
فَالعُمْدَةُ :

الزمن زمن التصنيع ، الآن أصبحتم كعباد الله ، الدخان يتصاعد وتصفر
المحرّكات وأبناؤكم يجدون لقمة العيش لكن علوان بوزيد كان [illegible]

ماذا بقي فيها؟ وهذا البحر ماذا بقي فيه». أما العمدة فقد غضب.

ـ يا سادة، لا يرضيكم شيء لو بيّنا لكم الجنّة لكفرتم بها، ماذا سيُرضيكُم؟ رؤوس الأموال تقبل من كلّ مكان وماذا تريدون؟»

وكان علوان بوزيد يتألم «الأرض لم تعد شيئا، الجفاف والدخان المتصاعد؟
وقف العمدة أمام الصخرة التي يجلس عليها:
ـ يا علوان بوزيد، المعامل مفتوحة، لماذا كلّهذا التّعب؟

كان يَقْلِبُ الأرض في كل يوم لكنّ الأرض ظلت مشباحاحة وظلت الأفواه تنادي «يا أبانا نريد أن نتعلّم»، مع الفأس والمسحاة» ما كنت لأترك الفَأس والمسحاة لولا الغابة، أنا مغلوبٌ على أمري، لكن على الأفواه أن تبتلع لقمتها» وأصبح علوان بوزيد يلْبس البدْلة الزرقاء والخوذة الحديدية، لكنّه في يوم ما اختفى.

«لماذا فيك أفكرّ يا علوان بوزيد؟ علوان بوزيد يا شيخ الفلاحين يا أبي» كان أبوك يركب بغله ويقذفك وراءه ويتّجه إلى الحقل وعندما يصل يأخذ مساحقه ويرتمي على الأرض يقلبها في حين تجلس وراءه وقد غصت في كوم الأرض المقلوب رغم غضب أمّك التي تريدك موظفًا كأخيها. رجلاك ويداك في التّراب. أنفك في التّراب وكنت تراه ينتل المسحاة وعندما يترك المسحاة مشدودة إلى الأرض ينفض التّراب من يديه ويُقبِل على كأس الشاي المطبوخ على الحطب المشتعل ويحدّثك فيرى الغابة جنة عريضة ويعود إلى التّراب يقلّبه ويخرج الحشائش الميّتة، ولكنّ علوان بُوزيد كان جاركم، كان يجلس إلى أبيك وكان يعرف القراءة والكتابة وكان أبوك يُحدّثك عنه قائلا:

ـ «كان علوان رَجُلا يا ولدي، كان في عام الحرب ابن العشرين وعندما دخل الألمان ترك الأرض والتحق بهم ولمّا سألناه عن السّبب قال «لا يقهر عدّوك إلا عدو عِدّوك» وفي أيّامٍ قلائل أصبح دليلهم في الواحات والطرقات المهجورة

ولمّا انكسر خط مارث علمنا أن علوان بوزيد في السجن ، بحث عنه الفرنسيون في كل كوخ وفي النهاية عثروا عليه . لم نسأل كثيرا لأنّ كنّا نعلم أن علوان بوزيد سيلقى حتفه . كان شيخ المنطقة يتبع حركاته ويهدّد ويلعنُ . كان يقول :

ـ هذا الكلب سيُغْضِبُ علينا الفرنسيس .

وكنا نجيبه :

لكنّ الفرنسيس غاضبون علينا دائما

وكان الشيخ يغضب ويصيح

ـ الفرنسيس أصدقاء أما هتلر فهو طاغية

أما نحن فلم نكن نُفرقُ بينهم جميعًا »

كان أبوك يرفع صوته وهو يحدّثكم عن عام الهربة قائلا :

ـ كلّهم هربوا من السّجن في تلك الأيام المشؤومة إلا أنا وعلوان بوزيد وفي تلك اللّيلة كانت القنابل ترشق الحي من جهاته الأربع لكن ولا واحدة تفرقعت ، كان أزيز السلاسل ينقب أذاننا ، وكانت أكياس الضّوء وتحرق عيُونَنا ومن الغد كان الفرنسيس في كل أحياء المدينة يبحثون عن أنصار الألمان وليلتئذ كان علوان بوزيد يلعن بو الفرنسيس والأمريكان وكان يهمس لي في أذني والأزيز يكاد يسقط علينا سقف الحجرة :

لولا الأمريكان لقاوم هتلر إلى النّهاية لكنّ الأمريكان لا دين ولا ملة جاؤوا من كلّ حدب وصوب وهاهم في النهاية انتصروا وركّبوا علينا الفرنسيس مرة أخرى .

وبعد أيام عاد الشيخ من هربته وهو يفرك شواربه الطّويلة مزهوًا :

ـ قلت لكم ، الفرنسيس هم أصحاب البلاد لكنّكم يا ناس بلا أصل ولا فصل لا تقفون إلا مع القوي انظروا أين علوان بوزيد الآن ؟

إنه في سفرة طويلة ، أركبه الفرنسيس إلى مرسيليا والله أعلم أين سيقذفون به فيما بعد .

ويروي أبوك بقية الحكاية . « غاب علوان بوزيد سنة كاملة ثم عاد إلينا فجأة ولكن علوان بوزيد أصبح رجلا آخر ، أصبح علوان بوزيد يرطن الفرنسية وأصبح يقول كلاما غريبًا :

ـ يلعن بو الفرنسيس يتحدّثون عن الدّيمقراطية والاشتراكية ويستعمروننا

فنسأله عن الاشتراكية فيجيبنا :

ـ حكم العمّال في روسيا :

ـ وأين توجد روسيا ؟

فيأخذ عصا ويرسم خطوطا ملتوية ويقول : « هذه هي روسيا » ولكننا لا نفهم شيئا .

وتظلّ قصّة علوان بوزيد على اللّسان ، فأنت وحدك الذي يعرف علوان بوزيد لكن علوان بوزيد لا ينقذك من كابوسك ولا يخرجك من وضعك . لقد وجدت نفسك ذات يوم تتسأءل : « متى أظل عالة على الرّفاق ، لقد وفّروا إليّ كل شيء : المأكل والمسكن ومصروف اليوم ولكن متى سيتواصل هذا الأمر ! » في أعقاب كل شهر يدخل عليك جارك ويقدمان لك ماجمعاه من الرفاق وماذا بعد ؟ كنت تفكّر دائما : « لكن ماذا عساي أصنع ؟ الأبواب موصودة في وجهي ، الوزارات والشركات وحتى وكالات الأسفار ترفضني . كلما وقفت أمام المسؤول الاداري تُحِسُّ إنه يخافك لقد عرفت الصحّف وجهك أياما ، فلقد وجدت فيه بضاعة رابحة حمدي رجب تُوقفه الشرطة ـ حمدي رجب مورّطٌ في تنظيم سياسي حمدي رجب يحكم عليه بالسّجن ، الصّحافي كهذا الشرطي الذي يقودك يُريدُ أن يؤلّب عليك النّاس . نعم الناس الّذين من أجلهم عِشْتُ ومن أجلهم سُجنتُ . لكن المسؤول مع ذلك يُحاول أن يكون طيّبًا :

ـ الخبرة متوفّرة ما اسمك يا سيّدي ؟

وينظر في عينيك طويلا ثم يضع يده على ملف ويرفع نظّارته قائلا :

ـ المعذرة يا سيدي ليس دلينا شُغْلٌ .

القلمُ الأحمرُ يلْهثُ وراءك في كلّ مكتب فما الفرق بينك وبين مهرب الأفيون والسلاح ؟

وتظلّ كلّ مساءٍ تحتسي القهوة مع قاقو اليهودي الذي يُوافيك بأخباره جملةً وتفصيلاً :

ـ المعمل سيشتغل هذا الأسبوع . الأموال جاءت من وراء البحر .

ـ والتجار ؟

ويظل خبرُ المعمل أسطورة الحي التي لا تنتهي . الأموال والآلات التي وصلتَ إلى الميناء والمرأة الشقراء التي تبدو أمامك من خلال النافذة . الأموال والآلات من وراء البحر والسواعد الوطنية والخير للجميع . الخبرة يتقاسمها كل النّاس . نحن جسرٌ بين الشمال والجنوب . نحنُ ملتقى الخبرات والكفاءات . أموالهم وخبرتهم ، سواعدنا وأسواقنا . لن تفهم أبدا يا حمدي رجب كيف أيدُور الزيرُو . هذه مشكلتك وهذه معضلتك ولكي يَدُور الزِّيرُو يجب أن تحبّ المسيُر فريد ربك هذا الرّجل البارد كالثلج ومع ذلك فهو صاحب المفاتيح السحرية . يقول لك قاقو صديقك :

ـ مسيو فريد ربك له مصانع كبيرة في كل مكان من هذا العالم ويملك أسواق الدنيا جميعا ، يُشَغّلُ ملايين العمّال ، جاء لُيساهم في تنمية البلد . مصنعه في الحيّ سيغيّر الحياة ويعطيها طعما جديدا .

ـ سيشغّل العمّال ؟

ـ ويصدر أنتاجه إلى الخارج

ـ ونحن ماذا ربحنا ؟

ـ ربحنا العمل يا أخي ، ساعَدَنا في كل مشكلتنا .

لن يفهم صديقك قاقو مشكلتك . الاستغلال والامبرالية والاستعمار الحديث والرأسمالية ، كلّها أفكار خرافية عنده .

ـ اتركوا يا نسا خرافات الجامعة . افهموا الواقع يا ناس .

كيف عرفت هذا اليَهُوديّ ؟ دلّك رفاقك على هذه العمارة الّتي يملكها وعندما سلّمك مفتاح البيت لم يسألك عن هويّتك لعلّه كان يعرف شيئا عن أخبارك . وذات يوم وأنت ترتقي السلم أعترض سبيلك ودعاك إلى بيته فلم تتردد . كنت يومئذ مُتعَبًا بعد أن أمضيت ساعات طويلة تنتقل من محلّ إلى آخر تبحث عن الشغل . قدم لك كأسا فشربت كنت في حاجة إلى الإرتواء . شرِب بدوره كأسه الثالثة وقال لك :

ـ لا تقلق كثيرا ولا تشغل بالك ، البيت على ذمتك إلى أن يُفرجها الله .

حاولت أن تفهم هذا الكرم من رجل غريب ولكنه فهم ما يختلج في صدرك . وضع شفتيه على كأسه الجديدة وقال :

ـ ذكّرتني بتلك المدينة البعيدة ، أنا أيضا من هناك

« أنا أيضا من هناك ؟ » أحسستَ أنك لست غريبًا ، رجل من مدينتك البعيدة يفتح لك قلبه . لعبت الخمرة برأسه وفاض بحر الذكريات :

ـ « أنا من هناك ، أبي من هناك ، كان يجلس على أريكة قديمة يذيب قطع الذهب القديمة ويصنع منها أساور وعقودا ويظل طول النهار ويستقبل حرفاءه من العرب ، لم أكن أعي شيئًا ممًّا يفعل أبي . لقد كانت الأسرة سعيدة ، كنا نعيش في الحارة وكان جيراننا كلهم من اليهود ولما دخلت المدرسة كنت أرى أطفالا آخرين ليسوا فرنسيس ولا يهودا كنت أتكلّم لغتهم ولكن شيئا ما كان يفصل بيننا وكان صغار العرب في كل أسبوع يهجمون على حينا ويقفون في الساحة خارج الحارة يُعلِنُون الحرب ونبقى السّاعات تلو الساعات نتفاوض ، يُوفودون إلينا رسلهم ونوفدُ إليهم رسلنا ثمّ نتّفق على الموعد ونجهّز جيُوشنا بالحجارة والعصي وكنّا ننتصر ولكن كثيرا ما نهزم ، وكنت أسأل والدي :

ـ مالنا وهؤلاء العرب ؟

فيدْنيني إليه ويَهْمسُ في أذني خائفا :

ـ هؤلاء يا ولدي بدو لا يعرفون علما ولا تجارة لولانا والفرنسيس ما كانوا يعيشون كعباد الله .

وعندما وضعت الحرب أوزارها أخذني أبي إلى البيت وقال لي :

ـ حذار من النّازيين والفاشست

ـ من هم النّازيون والفاشست ؟

ـ النّازيون والفاشست أعداء اليهود يذبحونهم ، يَشْوُون لحومهم .

ـ وما لاهم يذبحون اليهود ويشوون لُحُومَهُم ؟

لم أستطع أن أفهم شيئا . كنت أرى فقط أبي المرابي يجمع في البيت أخبار النّازيين والفاشست المنحشرين في الواحات المحيطة بالمدينة ثمّ أختفي فجأة فسألت أمي التّي أخذتني في هلع :

ـ أكتم ما حدث في البيت ، عندما تكبر ستعرف شيئا كثيرا ثمّ سكت قاقُو ، أفرغ كأسا أخرى في جوفه وسكت ، كان ينظر إلى بعيدٍ يحاول أن يَجْمَع ما بقيَ من ذكريات قليلة لكنها ساخنة :

ـ لقد قتلوه ... نعم ذُبحَ مع جماعة من اليَهُود .

يا إلاهي ما يقول اليهودي ؟ عدت أنت إلى ذاكرتك ، إلى أخبارك ورواياتك عن علوان بوزيد . علوان بوزيد هو القاتل . قال لك أبوك :

ـ جمعنا علوان بوزيد تحت الجبل وقال لنا : الليلة الثأر .

كبار اليهود يخونوننا في ديارنا، إخواننا اخوانك يُقتّلون، يخرجونهم من ديارهم ويذبحونهم ، الثأر يا إخواني « وقتلنا جماعة منهم وذبحنا بعضهم على قارعة الطريق رغم الجندرمة ، مسكوا بعضنا وأخذوهم بلا عودة يا ولدي » وجدت نفسك مع البطل والضّحية ، مع القاتل والمقتول ، ارتبكت بدأت الخمرة تلعب برأسك

أيضا، لم تعد قادرا على النظر في عيني هذا اليهودي الذي جلس أمامك يتحدث عن أبيه، عن أبيه الضحية. لكن علوان بوزيد يَصْرخُ في ذاتك «لا! هذا اليهودي لم يكن دِيّة. ثأرنا نطلبه بيَدنا. علوان بوزيد بطللك يتمرّد في ذاتك، يُدافع عن نفسه. مسكْت الكأس بيدك وظللت تنصت واصل قاقو حديثه مُرْتجِفاً:

ـ تشرّدت العائلة، سافر بعضنا ولم يعُد، نمت على قارعة الطريق حتّى وجدت نفسي ذات يوم في حانة من حانات هذا الحي.

كنت تريد أن تسأله «كيف أنت الآن صاحب العمارة والحانة والمغازة والأسهم في البنك؟ لكنّك لم تستْطِعْ.

عدت تفكر في علوان بوزيد الذي وضعك أمام ضحيّته يتحدّاك ويُقدّم لك الحجّة الدّامغة» انظر يا حمدي ماذا فعلنا؟ ثأرنا طلبناه بأيدينا، ها هي الحجّة الدّامغة أمامك «تحدّث قاقو وقد استعاد بعض نشاطه:

ـ وجدني صاحب الحانة من الثقاة، كنت أقول أموت ولا أمدّ يدي

وأصبحت أجلس على الأريكة أمام الكاسة أجْمعُ النّقود وكنت حاد الطّبع أحمل في صدري بقايا الهزيمة في المدينة البعيدة.

فعندما ترتفع الحرارة في رؤوس الحرفاء ويعلو الضّجيج والصّخب ثم تتحوّل القاعة إلى حلبة صراع أمسك بأكثر الحرفا سكرا من عُنُقِه وأصفعه يمينا وشمالا وفي لحظة تهدأ القاعة ويصبح السّكارى إخوة كأنّهم خرجوا من رحم أمراة واحدة... كانت جميلة..! ويسكت ثمّ يتنهّد ويخرجّ سيقارته ويدخّن. العنف يُلاحقك في كلّ مكان، حتّى هذا اليهودي يحمل معه حقده من المدينة البعيدة فظلّ يدقّ أعناق السّكارى في الحانة، لكن علوان بوزيد هو الذي زرع الحقد في صدره وعلوان بوزيد صاحبك وحبيبك...

« وكنت أسمع ما يقول الحرفاء « ليلة واحدة مع هذا اليهودية وليأت الموت » ومع ذلك كنت لا أهتمّ بما يقولون . لقد كانت تمرّ أمامي كل يوم وفي كل مساء تنتصب أمام الصندوق وتمدّ يدها وتأخذ ما تريد وعندما شكوتها إلى البطرون قال لي في هدوء كامل :

ـ هذه البنت مجنونة وما أملك عائد إليها فماذا أفعل ؟

قلت :

ـ تدق عنقها .

ابتسم ثم نظر في عيني وقد بلغ السّكر حدّه :

ـ دق عنقها وتزوجّها .

لم تراودني الفكرة قط ولكن منذئذ بدأت أفكر . وذات مساء وقد خلت القاعة من حرفائها دخلت ومدّت يدها إلى الصندوق فأمسكتها بعنف وصحت في وجهها :

ـ ليس لك عندي نقود من اليوم .

ـ الأب قال هذا ؟

ـ لا!... أنا

صاحت ومدت يدها إلى عنقي تريد خنقي لكنّي ظللت هادئا متصلبا ثم أخذت يدها بلطف فعاودها الهدوء وعندئذ أتكأت على المشرب وطلبت كأسا :

ـ لنتفاهم ...

جلسنا في تلك الليلة إلى طاولة واحدة وشربنا كثيرا وبدون مشقة أتفقنا على الزواج :

ـ نتزوج على شرط واحد

ـ ما هو ؟

ـ أن أعيشَ حرَّةً .

وتزوجت وأثريت .

أحسست أن قاقو يريد أن يحرق مراحل حياته ويريد أن يحدّثك عن أسخنها وأكثرها لهيبًا . وأخرج الدخان من خياشيمه وقال :

ـ كدت أبيع كل شيء وما وجدت هناك شيئا .

قالت لي الزوجة :

ـ لنفتح حانة في قلب أورشليم

كالعادة ينقط حبل الذكريات فجاة ويسكت صاحبك . هذا الرجل الذي ذبح أبوه في فجر ذات صباح وصاحب المدية بطلها علوان بوزيد وبطلك تتحدّاك ويودّ أن تكون شاهد إثبات . واصل قاقو حكاية :

« اللعنة على ذاك الحاكم العسكري ! كان يدخل الحانة بضباطه يتودّد إلى زوجتي وبعدها بالحانة التي تريد فتحها في أور شليم ثم أصبح يدخل البيت بدون استئذان ويغازل البنت أمامي وعندما يلاحظ إمتعاضي يلتفت إلى زوجتي ويقول هازئا :

ـ زوجك هذا جلف من أجلاف العرب .

وكان يتناول الكأس ويقهقه وذات يوم أدركت أن هذا الرجل العنيف حوّل بنتي إلى عاهرة في فراشه . سألتها :

ـ كيْف يحدق هذا ونسكت ؟

ـ وماذا نفعل ؟

لا أحد يقول شيئا ، الناس أسيادٌ وعبيد ، قليلون يملكون وكثيرون يعملون وكان الحاكم العسكري يُحذّر دائما :

ـ حذار من العرب !

توقّف قاقو عن الكلام ، قام إلى الثلاجة وسحب القارورة الثالثة . محكومٌ عليك بالانصات . قاقو عالم آخر لم تكن تعرفه . ها أنّك بعدما خرجت من السجن

تكتشف شيئا جديدا . مدينتك النائية طرائفها كثيرة بنت التاجر وخالك وبنت الخال وقاقو . مدينتك رغم عهرها لا تريد أن تتخلّى عنك . هنا هي توقعك في يد هذا اليهودي .

قالت لي :

ـ المسألة الآن سياسية ويجب أن نعود إلى الوطن

تسألت :

ـ الوطن ؟ والآخرون أليس لهم وطن ؟

صاحت في وجهي هدّدتني ، شتمَتْني ، عيّرتني بأصلي قالت لي :

ـ أنت جلف ، أهلك ماتوا في مدينة الجنوب ، أبوك ذبح رغم عساكر الفرنسيس وأمّك ماتت بعد سفرك وتشرّد إخواتك في بلاد الدّنيا .

حاولت أن أصّدقها :

ـ ها نحن هنا في خير أرزاقنا تجري ولا أحد يهان

وسافرْت ابنّي أنا (ويَضْرِبُ بيده على صدره) تُصْبحُ عاهرا ؟

ـ وفي تلك الليلة شتمتّها ، جمعت كل غضبي وعنفي وشتمتّها :

ـ اللعنة عليك وعلى الحاكم العسكري

قالت لي :

ـ إن لم تسكت أتّهمك بالخيانة ، أنت تتعامل معهم .

انقضضت عليها ، كنت أريد أن أقتلها في تلك الليلة شيء ما في الداخل جعلني أشعر أن أمرا ما لَيْس طبيعيًّا في هذا المكان الجديد .

الحاكم العسكري والحراسة المشدّدة والخوف الذي يغمر حيَاة النّاس في كلّ لحظة قال لي الحاكم العسكري ذات يوم وهو يُراود ابنّي كالعادة :

ـ يا قاقو يجب أن تحمل السّلاح .

ـ ولماذا السلاح ؟

ـ ألا تسمع اطلاق النار كل ليلة ؟
ـ الفلسطينيون ؟
ورمى الكأس على الطاولة بشدة ثم واجهني بنظرة نارية والتفت الى زوجتي :
ـ هذا الرجل جلف

كنت اريد ان اعود الى الوطن لقد اشتقت الى رؤية الأحباب وفهمت زوجتي أيّ وطن أعني لكنّها قررت البقاء . كانت تحلم بالحانة التّي ستفتحها في أرشليم ، لقد كانت زوجتي تريد أن تضحّي بكل شيء من أجل تأكيد إخلاص للدولة . ابنتي أصبحت عاهرا . يقول عنها الحاكم العسكري :
ـ هذه البنت الجميلة قد حطّمت كلّ الحواجز إنّها تقدر على العيش في أية عاصمة من عواصم العرب وتقدم لنا أروع التقارير . كلّ ما عندك يا عزيزتي مُهيأُ لخدمة الدّولة إلا هذا الجلف . ويشير إليّ ... كنت يومئذ في البيت لست أدري كيف أقعدني فيه صداع عنيف وكانت زوجتي إلى جانبي لعلها أدركت غربتي وأنا في خيالاتي تأكلني الحمّى جاءني الخبر الصّاعق : انفجار قرض الحانة ومن فيها وعبر خيالاتي لم أكن أرى سوى زوجتي وهي تصرخ تنتف شعرها . وفي الغد وقد هدأت الحمّى قليلا بدأت أدرك ما حدث من خلال كلام النّاس وأخبار الاذاعات والصّحف . ظللت أسبوعا كاملا لا أعي : ياقاقو ما هذا بوطن ... يا وطني هناك أنا عائد إليك وفي النّهاية أخذت بدلتي وتسللت عبر المدن والقرى وجئت إلى هنا . »

أشرق وجه صديقك وهو ينهي قصته ، كان يُريدُ أن يُعْلِمَك أنك لست وحدك الّذي غادر مدينته البعيدة وتألّم وتعذّب هو أيضا غادر مدينته مدينتك وتألم . أتعلمه الآن أن علوان بوزيد هو قاتل أبيه ، محال ... أبوه مات منذ زمن مضي وعلوان بوزيد كان يثأر لكرامته المهدورة وقاقو يلوك الآن عزلته لكنّه عرف قصّتك مع علوان بوزيد . قال لك :

ـ سمعت هناك في المدينة البعيدة بهذا الإسم لكن من يكون ؟ لست أدري .

لعلّه كان يعلم أنّه قاتل أبيه لكنّه لم يقل شيئا . عندما سمع البعض من قصتك قال لك :

ـ دعني يا ولدي من الماضي . أنا أريد الآن حاضري وحاضري هذه الكأس أتريد أن تشرب معي ؟

وسيَظل قاقو يلوك آلامه الدّفينة وقهره وغربته . الغربة والقهر يلاحقانك في كل مكانٍ من هذا العالم وسيموت قاقو ذات يوم وحيدا في حجرة من حجرات هذا البيت وستلحق أرزاقه بممتلكات الدولة ولكنّه لن يفهم مشكلتك . الاستغلال والاستعمار الجديد والرأسمالية نعم الرأسمالية كلها أفكار خرافية عنده . قال لك ذات يوم وهو يفرغ الكأس في جَوفه :

ـ يا ولدي لولا الاشتراكية لما انتصرت تلك الزوجة وذهبت إلى هناك .

ـ كيف حدث هذا يا قاقوا ؟

ويروي قاقو الحكاية : « جاءتني ذات يوم فزعة :

ـ يا قاقو جاءك الهم ، الاشتراكية جاءت

ـ يا مرا أي اشتراكية ؟

ـ التعاضد ...

أنا رجل يا ولدي علّمته الحياة كيْف يُدير الزيرو . كلّ الهمّ ولا الإشتراكية .

وذهب هذا واقع صديقك قاقو وهذه مشكلته .

الفاصلة الأولى

أين أنت الآن يا ولدي ؟

ساعة السفر لم تحن بعد. مرض الشيخ دام هذه المرة ولكن الشيخ مازال قادرا على الجلوس ومازال قادرا على النظر في الأشياء التي تحيط به. يجلس الآن على السّرير في الغرفة البحرية والسّرير يواجه النافذة الصغيرة والنافذة الصغيرة تفتح على ساحة الحوش والحوش يفتح على الطريق الضيقة التي تربط بين أحياء المدينة والواحة. يجلس الآن على السرير وأمامه على كرسي قديم تجلس زوجته. انه الآن لا يريد أن يقول شيئا، يكفيه النظر الى أشياء الغرفة التي يقضي فيها ساعاته الأخيرة من رحلة عمر طويلة انّه ينظر الآن. طلب سيقارة. لم يكن يدخّن كثيرا السيقارة عنده لحظة انتشاء. تردّدت العجوز ثمّ تراجعت. هي أيضا تعتقد أن رفقة عمر بلغت نهايتها.

ـ كيف الحال الآن ؟

ـ لا بأس حتّى يعود الولد.

رمت بنظراتها بعيدا. على الطاولة في الحجرة المجاورة بعض أقلام قديمة وكتب كساها التّراب. الولد سافر ولم يعد. أخبار تأتي من هناك. أخبار سيئة. دائما سيّئة. الولد في السّجن. يا الاهي ؟

رمى الشيخ نظره في الحجرة وظلّ يُحْصِي أشياءه القديمة السقف مستطيل مشوّه بالجير الأبيض. شقوق ضيّقة وعريضة تمتد من زاوية الى أخرى. زبالة الذّباب تطلي ضفاف الشقوق انحدر نظره قليلا. الحائط الذي يصدُم عينيه واقف. اللون الاصفر غاب تحت خربشات قديمة. على اليمين والشمال نفس الاصفرار. لوحة على اليمين ولوحة على الشمال رجل يركب جوادا منتصب الأذنين ويحمل سيفا طويلا. اسم الله ومحمد بالأحرف الكوفية الغليظة وأمامه الباب المنفرج وقطعة قماش قديمة تحجبه وتمنع الذباب من الدّخول والى جانبه نافذة صغيرة تفتح على ساحة الحوش.

مدّ يده الى الطاولة الخشبية الصغيرة. تناول علبة الكبريت. ارتعشت يده ومع ذلك أصرّ. السيقارة الآن بين الشفتين. دخان كثيف يخرج من الخيشوم. سعال خفي يخرج من أعماق الصدر. لحظة التدخين هذه تعوِّض ألف لحظة. انقطع الكلام منذ زمن. بين العجوز والشيخ جبل من الصمت. يقول الأجوار هو صمت الشيخوخة، لكن همّ القلب لا يعرفه الا صاحب القلب. منذ سنة لم يعد في استطاعة الشيخ ركوب البغل باع البغل واشترى حمارا قصير القامة. قال الشيخ في ألم :

ـ ماذا بقي لك يا راجل؟ حمار ليس كالحمير وولد في الغربة وتنهّد.

ـ الأيام تروح ... ولكن الولد ....

وتنهّد

ـ عليك العوض يا ولد. انتظرتك السنين لتحمل عني همّي. أبوك مكدود الآن، محصول الغابة الآن لا يساوي فلسا. البيوت المكيّفة أغرقت السوق والجهد ضعيف، أين تلك السنين يا ولد عندما تنتج الأرض أذهب الى افريقا أحرث وان منعوني من الحرث أحفر لهم المطامير. لم تعرفني يا ولد. لا يمكن لك أن تعرفني يا ولدي، في تلك الأيام لم تجيء أنت بعد لم أتزوج أمّك ولم أعرفها. آه أمك، لو نجحت في تلك المغامرة لما كانت أمّك أمّك، لكنت يا ولدي ولد سبنيورية، آه يا ولدي لو تتصوّر نفسك لحظة واحدة أنك ابن تلك السبنيورية القمحية اللون، إنها

امرأة وليست ككل امرأة دمها ليس من دم الروامة. يا ولدي لا يمكن أن تتخيّل أباك عاشقا، أعرف ذلك وأفهم أيضا. لو تخيلت قليلا لعلمت أن مصيبتك انحدرت مني، نحن يا ولدي من عائلة العشق مصيبتها. مصيبتك جاءت من ابنة التّاجر. كم وددت أن أزوّجك منها. لكن ماذا أفعل ؟ أبو تاجر بخرّ ماء الوجهِ منذ زمن. أنا أيضا أحببت. أحببت السبنيورية ومنذئذ لم أحبّ امرأة غيرها حتّى أمك لم أحبها. كنت في افريقيا وكنت عندما أتعب من الحرث ألتجىء الى دكّان اكتريته خارج المدينة وكانت السبنيورية تجوب الشوارع تبيع الثياب وأدوات الزينة. كانت جوّالة تدخل البيوت وكانت بضاعتها رائجة حينا وكاسدة حينا آخر. وذات يوم وأنا في باب المدينة رأيتها. كانت تحاور رجلا ثم تحوّل الحوار الى سبّ وشتم. رفع الرّجل يده وصفعها وحين رفعها مرّة أخرى مسكتها بيدي هذه. حاول أن ينتزعها فصفعته. نتر يده مني هذه المرة وخنقني. كدت أموت يا ولدي الناس حولي لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئا كان ولد اللبوة معروفا، كان صعلوكا من صعاليك المدينة. وضعت يدي على ذراعيه، كان يضغط ضغطت استنجدت بقوّتي كلّها وفي النهاية نترت يديه من رقبتي ودفعته بضربة قويّة الى الأرض، سقط، هويت عليه مرّة أخرى. كان النّاس حولي، كانوا ينظرون، ولد اللّبوة تهنشر، جمدت مفاصله، طلب الأمان. وقفت أمامي. دفء العالم انفجر في عينيها ثمّ جاءتني الى الدّكان وتخيّل يا ولدي ماذا فعلنا لا لم نفعل شيئا. والله يا ولدي ليلتها لم نفعل شيئا. كانت جميلة كانت عيناها واسعتين وكان عنقها طويلا، ماذا أقول لك يا ولدي.

لست أدري من أي بلد جاءت، وأين كانت، وأصبحت تعيش معي نفترق في النّهار ونلتقي في الليل. قلت لها :

ـ أتزوّجك. أضرب الدنيا عرض الحائط وأتزوّجك

وذات ليلة عدت الى الدكان ولم أجدها. انتظرت الليل كلّه. أشعلت الكانون ووضعت البرّاد وقلت : أشرب كأس شاي وأنتظرها ثمّ هي أيضا أعدّ لها كأس

شاي. الليلة باردة وسيصيب الثلج مفاصلها. أسقيها كأس شاي وأضع الكانون بين فخذيها وستدفأ. شربت الكأس الأولى والثانية والثالثة. النار في الكانون هدأت. ذبل بريقها، خبت تحت رمادها، انطفأت. فتحت الباب. نسيم آخر الليل يقطع الأصابع. انتابت البرودة جسدي واضطربت مفاصلي. جلست على العتبة. عدت الى الدكان ظللت أنتظر غفوت قليلا وعندما استيقظت لم أجدها.

بحثت في المدينة، سألت كلّ البيوت التي تتاجر فيها ولكن لا أحد يعرف خبرها. في المساء كنت متعبا. لم أذهب الى الدكان وانّما دخلت الخمّارة لم أشرب من قبل يا ولدي ولكنّي ذلك المساء كنت حزينا. لم أحزن من قبل. مصائب الدّنيا كلّها غير قادرة على بثّ الحزن في صدري ولكن غياب السبنيورية أحزنني، شربت القارورة الأولى. كان بعض صعاليك المدينة يحيطون بالطّاولة وينظرون اليّ. كانوا يشربون ويضحكون

ـ السبنيورية رحلت وأنت هنا ؟

ـ رحلت ؟

ـ رحلت الى قسنطينة

ـ الى قسنطينة ؟

تركت الرجل، كف الصعاليك عن الضحك رأفوا بي هم أيضا أحسّوا بحزني.

ربت الرّجل على كتفي :

ـ لقد فرّ بها صعلوكها الى قسنطينة.

يا ولدي لم أكن أعلم أن السبنيورية تقدر على هجري. عشت معها عاما كاملا ولم تخبرني لكنّي لم أتألم كثيرا عندما أدركت أن صعلوك المدينة افتكّها منّي. هي لم تخبرني بذلك ولكن مهما كان الأمر فهو صعلوكها. فكرت طويلا. ظللت أسبوعا كاملا أفكّر وبعد ذلك تركت العمل ذهبت الى مشغّلي وطلبت حسابي. تداخل الأمر عنده :

ـ يا راجل كنت بعقلك [illegible] الخير والبركة.

قلت :

ـ أنا بعقلي أعـ [illegible]

جادل كثيرا ولمّا [illegible] هيّأت أمري وتوجّهت الى الحدود. المسألة يا [illegible] ظللت شهرا كاملا في الطّريق. كانت الحرب [illegible] والفرنسيس والانقليز والأمريكان يزحفون [illegible] ومع ذلك قرّرت أن أصل الى قسنطينة [illegible] محال أن تكون لذاك الصعلوك. السبنيورية [illegible] ظللت أنتقل من عربة الى عربة، أترجّل حينا وأركب [illegible] الليل أمكث في أيّة أرض وصلت. كانت الطريق [illegible] النّار في كلّ مكان. من أجلها تعذّبت. كانت [illegible] كان الرجل شيخا. سألني :

ـ من أين يا [illegible] ؟

ـ من الأعراض

ـ أكرم وأنعم لكن لماذا جئت الى هذه الأرض يا ولدي.

تلعثم لساني ماذا سأقول له [illegible] من أجل امرأة عبرت الصّحاري والجبال ؟ لن يصدقني يجب أن [illegible] في الوقت المناسب حلال ولقد كذبت يا ولدي

ـ ابحث أن شغل

لم يصدّقني، ضحك والتفت الي . . .

ـ الشّغل في كلّ أرض. لماذا [illegible] ؟

ـ أرض الله واسعة يا عمّي [illegible] في أرضكم.

لكن حماره وظلّت العربة تسير وعند منحنَى في الطريق أوقف حماره وقال :
ـ يا ولدي اللّيل قريب وأنت غريب في هذه الأرض، هيّا أقم عندي هذه الليلة وسيفرجها الله.

عُدت من جديد الى العربة، ظللت صامتا فالرجل يغمرني بكرمه وأنا رجل غريب، أسير على غير هدى، هدفي امرأة بين أحضان صعلوك لكنّه يا ولدي اغتصبها منّي، في الدكان كنت أحسّ أنّها لي وحدي. صعلوك المدينة أدرك قوّتي ظلّ عاما كاملا يهابني ، ثمّ انتهز غيابي فابتزّها مني، أنا يا ولدي لا أقبل أن أنام على ضيم، ظللت راكبا أفكّر في حبيبتي، قلت : سأقتله ان وجدته سأقتله ان وجدته سأقتله، بخنجر أو حجر أو حتّى بأسناني. لا يهمّ، لي عنده ثأر، يجب أن أروي عطشي. لكز الرّجل حماره وسألني :
ـ يا ولدي، فيم تفكّر؟

انتبهت الى سؤاله، كان يحاصر أفكاري. كان يقرأ في ذهني تراجعت ثمّ قلت :
ـ أجبتك يا عمّاه. الشّغل

سكت، عدت الى نفسي، قلت، الرّجل يريد فضيحتي يريد تعريتي، وقفت العربة أمام كهف في الجبل، خرجت العجوز وذهبت بالحمار والعربة الى الزريبة.

أدخلني الكهف، أجلسني على حصير ثم جاء العشاء وتعشّينا ثمّ عاد الى سؤاله :
ـ يا ولدي، أحك لي قصّتك لعلّني أفيدك.

في تلك اللحظة أحسست أني في حاجة الى من يسمع قصّتي الى من يصفح لي جنوني كنت يا ولدي مثلك مجنونا، لكنّ جنونك جنون وجنوني جنون. من أجل امرأة اعبر كلّ هذه الجبال والطرق الوعرة. أجوع وأعطش وأتعب، الشيخ لم يصدّقني لو أقسمت له بكلّ الأيمان لن يصدّقني، لو أقسمت له بكلّ الأيمان لن يصدّقني قلت :

ـ يا عمّي لقد جمع بيننا الماء والملح، أحكي لك قصّتي ورويت له قصّتي.

ظلّ الشيخ مطرقا يسمع حديثي ويحرّك رأسه في هدوء ثمّ تكلّم.

ـ يا ولدي أنت صادق، أنت تعبت من أجل شيء ما إمرأة أو شيء آخر. هذا لا يهمّ يا ولدي الطريق الى قسنطينة خطرة، الفرنسيس الآن منتصرون. لقد عادوا من جديد الى التفتيش سأدلك كيف تمرّ، ثم لي رجل عزيز عليّ يدعى السلطان إذهب إليه فهو يعرف المدينة دخيلها وغريبها وسيدلّك على بغيتك. شكرته يا ولدي، قبّلت رأسه، لقد فتح الطريق أمامي. كان ربي معي. في كلّ مرّة أحسّ أن الله يقف الى جانبي انّك تفهم يا ولدي، لكن أقول لك، فكّر قليلا فستجده الى جانبك أيضا يبعث لك من يهديك، من يفتح لك الطريق لقد قلت لك ذلك دائما لكنّك لا تريد أن تفهمني هذا لا يهمّ نمت يا ولدي تلك الليلة أفكّر في حبيبتي، وفي الصعلوك الذي سأقتله بيدي، أو بهراوة أو بحجر. المهمّ أن أقتله. أركبني الشيخ عربته وسَارَ بي وعندما وصل الى طريق في الجبل قال لي خذ هذه الطريق وستصل قبل المغرب، وظللت أمشي، في نهاية الليل وصلت الى قسنطينة. ماذا أقول لك يا ولدي ؟ مدينة محفورة في جبل. مدينة قدّت من حجر معلّقة بين السماء والأرض سبحان الله يا ولدي ما رأيت مدينة مثلها، كانت الأنوار نجوما معلّقة والمعابر إليها مدارج تصعد الى السماء. بحثت عن السلطان، أوّل من سألته نظر اليّ في شزر وواصل طريقه. من يكون السلطان هذا ؟ سألت ثاني الرّاجلين، كان شابّا مثلك، ابتسم لي في خبث ثمّ دلّني عليه. قال لي :

ـ دُر الى اليمين، ستجد سوق الأحد. اسأل عنه.

وفعلا وجدته كان أمام نصبته يبيع الأدوات الحديثة، راديوهات وساعات واسطوانات وأشياء أخرى.

حدّثته عن الشيخ في الكهف. فرح بي، أجلسني على كرسيّه. كان رجلا مفتول العضلة قويّا، عاتيا ذكّرني بالصعلوك الذي ابحث عنه وأريد قتله.

حدّثني عن الشيخ قال :

ـ إنّه أخ عزيز عليّ هو ظلّ فلاّحا ابن فلاّح وأنا كما ترى أبيع وأشتري.

أخذني الى بيته. كان يعيش وحده. دكّانه في بيته، أكوام من الآلات الجديدة، مفاتيح، أقفال وراديوهات وأوان وكؤوس... حدّثته عن الصعلوك الذي اغتصب حبيبتي : ضحك في استفزاز :

ـ حبيبتك من ؟

ـ سبنيورية

ـ أنت أيضا تحبّ السبنيورية ؟

وضحك من جديد. استفزّني يا ولدي، كنت غريبا في بيته لم أستطع أن أفعل شيئا لكنّه عاد إلى جدّه قال لي في صرامة.

ـ إبق معي هنا وستأتيك السبنيورية.

ـ حقّا ؟

وأخذت كفّه ولثمتها عادت فرحتي كبيرة يا ولدي. أجد في النهاية حبيبتي، بعد سفر طويل وتعب ومشقة نمت ليلتي الأولى بين الحلم واليقظة لم أستطع أن أصدّق الأمر بسهولة. أصبح عندي لقاء السبنيورة حلما. ربّي أعانني، أعلم ذلك، هو الذي رمى الشيخ في طريقي وفي النهاية أجد حبيبتي. لم أستطع أن أنام صورتها لم تفارقني .. شوقي اليها كان شديدا.

في الليل داخل نومي الهوس. توتّرت أعصابي وتشنّجت، فارقني النّوم وظللت ساهرا. لم أكن أعلم أنّ حبّي لها بلغ هذا الحدّ. نسيت في تلك اللحظة البلد والأهل لم أصدّق أنني سأعثر عليها في هذه المدينة الغريبة. كنت أجري وراء حلم كبير ولم أكن متأكدا أنني سأحوّل الحلم الى حقيقة. وعندما جاء الصباح سألت صاحبي عنها ابتسم لي وقال :

ـ يا راجل أنا عند الوعد، لكن تصبّر أنت من الآن ستكون معي. في البيع والشراء الخير والبركة. سأعطيك أجرتك وأخذني الى دكّانه. نصبة فسيحة في طرف من السّوق. تقوم على أعمدة من حديد وتغطّيها ألواح من الزنك علّمني الشغل قال :

ـ هذه مهنة تكسب الذهب، لكن كن حكيما. أنظر في وجه حريفك. رغبة الشراء تبدو في الوجه لا تجادل كثيرا. كلمة واحدة تبعث الفرحة والاطمئنان وتجعل حريفك يفرغ ما في جيبه ويدفع ما في جيبه بلا ندم. ظللت أبيع وأشتري في الليل أغلق الدكان وأقيم فيه وكان السلطان يتغيّب عليّ يجيئني مرة في اليوم ولا يجيء. ولكنه عندما يجيء يكدّس لي السلع بدون حساب، يقف أمامي :

ـ يا العربي أنا واثق فيك الدكان أمامك في رقبتك وأنت الآن صاحبه .

لكنّي لم أسأله يوما الى أين يذهب وهل له شغل آخر غير الدكان استطاع الشغل أن يلهيني عن حبيبتي. قبل أن يخرج ذات يوم من الدكّان حدّثني :

ـ السبنيورية هنا في المدينة وستجيئك ذات يوم إلى الدكانِ وظللت أشتغل، أصبحت تاجرا، كان الزبائن من الفرنسيين وكان الدّخل طيّبا، لكن الصبر طال. ظللت ثلاثة أشهر أنتظر. في الليل أغلق الدّكان وأتجوّل في شوارع المدينة أبحث عنها ولكنني لم أجدها. كنت يا ولدي غريبا فكيف اسأل عنها وأنا لا أعرف الا اسمها. أقول :

ـ ابحث عن سبنيورية ...

سيضحكون :

ـ المدينة مليئة بالسبنيور

لكنّي أبحث، أدخل الأزقّة والشوارع الضيّقة أبحث عنها وذات يوم جائني صاحبي : قلت له :

ـ يا السلطان ... خذ دكّانك لقد وعدت لكنّ حبيبتي لم تجيء

قال لي حازما :
ـ ابق في الدكان وستجيء اليك.

في الليلة الأولى لم تجيء وفي الليلة الثانية عند منتصف الليل دقّ باب الدكّان. فتحت. كانت هي يا ولدي حبيبتي السبنيورية ارتمت في أحضاني، شربت من عرقي لثمت رأسي وأذني وشرقت بالدموع. أغلقت باب الدكّان وظلّت الليلة معي. كانت تحدّثني وتبكي. الصعلوك أكرهها. بكت، كنت في تلك الليلة مستعداً للصّفح والانتقام. قلت أخرج إليه وأقتله لكنّ حبيبتي صاحت وقالت :
ـ انا انتهيت لولا السلطان ما جئتك، السلطان افتكّني منه.

لكن فرحتي لم تدم يا ولدي في الليلة التالية وجدتها أمام باب الدكّان ذبيحة. حلمي ضاع يا ولدي. صعلوك المدينة ذبحها. جاؤوا بي الى السجن. قادوني الى الزنزانة :
ـ والله لم أقتل كيف أقتل حبيبتي !
ـ أو تحبّ السبنيورية ؟
ـ والله لم أقتل .

وأجهشت بالبكاء. لم أبك على حالي يا ولدي وإنما بكيت على حبيبتي التّي قتلوها. ظللت سنة كاملة في السجن وفي بلاد غريبة. لا أحد أعلم أهلي. دخلت السجن وخرجت منه والناس يعتقدون أنّني استوطنت في افريقيا. قصّتي هذه هنا في صدري ولا يدريها إلاّ الله. كيف خرجت من السجن ؟ قصّة طويلة يا ولدي ... مصيبتك أنّك انحدرت منّي يا ولدي، في مثل سنّي دخلت السّجن أنت أيضا. أنا دخلت السجن من أجل امرأة لم أقتلها وأنت من أجل ماذا ؟ لست معك ما لنا والحاكم، لا لا تعضّ الثدي الذي منه رضعت أنا دخلت السجن ثمّ خرجت منه. صعلوك المدينة قتل من جديد ثمّ اعترف وقذف بكلّ شيء. قبض عليه وبعد سنة

كاملة أعطوني قميصي وبلغتي وتركوا سبيلي. قلت يومئذ : يا رجل عد الى أرضك واترك أرض الناس للناس.

أنا أيضا يا ولدي، عرفت السّجن ، كنت قبلك فأر سجن، انّك لا تصدّق، ومع ذلك فإنك تحمل الدّودة التي أكلتني. من السّجن الى السّجن. قبل أن أعرف سجن الغربة عرفت سجن البلد يا ولدي وكان علوان بوزيد السبب، لقد حاك المجزرة بدهاء ولم يقع قلت له :

دعنا يا علوان، هؤلاء لا ذنب لهم. مشكلتنا مع اليهود هناك.

لكنّه أصرّ :

ـ هؤلاء عيونهم هنا. ثمّ هم بأموالهم التي يسلبونها منا يموّلون العصابات هناك.

ـ لكن ليسوا جميعهم.

ـ هنا أنا معك. ونحن أيضا لن نذبحهم جميعا. هناك سبعة رؤوس يجب أن تقطع.

ـ الذبح يا علوان ؟

غضب، هاج في وجهي :

ـ نعم الذبح، هم هناك لا يذبحون فقط، انّهم يبقرون البطون ثمّ هنا أيضا، ألا تعرف ماذا يفعل الفرنسيس ؟

لم نبلغ زمنئذ العشرين يا ولدي. كنّا يومئذ فلاّحين لا غير جاءنا رجل لا نعرفه الى المسجد وحدّثنا عن فلسطين واليهود :

ـ انهم الآن يحيكون المكيدة، بدؤوا الآن يحقّقون الوعد. بلفور مات لكنّ وعده بدأ يتحقّق، إنهم يأتون بالسلاح ويشترون الضمائر بأموالهم. يقتلون ويذبحون والاستعمار يساندهم ويعدهم بالتقسيم الفعلي.

ـ ومن هو بلفور هذا ؟

ـ أحد زعماء الانقليز. ليكسب مساندة اليهود وعدهم بأرض
ـ لكنّ أرض الله واسعة
ـ لكنّه وعدهم بفلسطين
ـ والعرب ؟
ـ العرب الآن لا قوة لهم، أمرهم في يد غيرهم ولا يفعلون شيئا
ـ والحلّ ؟
ـ الحلّ ليس بيد الحكام. الحلّ بأيدينا

وقال يا ولدي أشياء أخرى لم أعد أذكرها. ظلّ علوان بوزيد شهرا كاملا يعدّ العدّة، يجمع بعض الفلاحين عند منعطف النّهر ويحدّثهم عن اليهود وعن فلسطين. لكنّي لم أكن مقتنعا

ـ أنا صديقك يا علوان نعم ! لكنّ الذبح لا ... هؤلاء نعرفهم في الحارة، انّهم جيراننا ثمّ ليس لنا دليل، هم أيضا فقراء وأغنياء أغلبهم يبيعون الدّجاج والخبزة المردومة، ويمدّون أيديهم للمارة مثل أتعس الفقراء

انقضّ عليّ كالوحش :
ـ أقتلك انت إذن، أنت تعرف سرّي الآن.

تدخّل الفلاّحون، منعوا أمرا كاد أن يقع قلت له :
ـ يا علوان اجمع المال كما يفعلون، خذني معك الى هناك. لكن أن أذبح رجالا فيهم الفقراء فلا. لكنّي وعدته : قلت له :
ـ أنت صديقي وحبيبي، سرّك في صدري يا علوان وانسحبت.

بعد يومين حدثت الواقعة يا ولدي سبعة من يهود الحارة ذبحوا قبل الفجر، داهمهم رجالنا في أعقاب الليل، كانوا يحملون السكاكين، ذبحوا ذبحا ونهبت أرزاقهم. وجاء الجندرمة وحوصر حيّنا، لا أحد يدخل ولا أحد يخرج. قالوا : رجال ملثّمون يلبسون قشاشيب هجموا علينا وذبحوا رجالنا. وجاء الجندرمة، وحملوا

الرجال الى الاستنطاق. لكن علوان بوزيد ذاب. سألت عنه سرّا، لا أحد يعرف عنه شيئا. لكنّ الأمر اشتبه على الشهود. كلّ سكّان الحيّ يلبسون القشاشيب في الشتاء. وتوجّهت التهم الى العاطلين في الحيّ وبعض الفلاحين. جلّ المتّهمين كانوا ليلة الحادثة يسكرون ومع ذلك حكم على بعضهم بالشنق وبالآخر بالسجن المؤبد. وكنت من بين المتّهمين، كنت معروفا بقشّابيّتي البنيّة. وضعوني أسبوعا كاملا في الزنزانة. لكنّي لم أعترف وأنكرت صلتي بالقضيّة ولكن لم أستطع أن أدافع عن نفسي. حكموا عليّ بسنة كاملة ولست أدري كيف كان الحكم ومع ذلك كنت فرحا. لأنّ غيري حكم عليه بالشّنق وهو لم يفكّر يوما في فلسطين وفي اليهود ولم يسمع بهتلر لكنّ علوان بوزيد ذاب. ظلّ سرّه في صدري وفي صدر رفاقه الذين هاجموا كان ذلك أوّل عهدي بالسّجن. لقد تألمت كثيرا ولكني مع ذلك أوّل عهدي بالسجن. لقد تألمت كثيرا ولكنّي مع ذلك تعزيت قلت :

ـ ها أنا أدفع الثمن من أجل علوان بوزيد. غيري دفع حياته هناك فيما بعد ومنهم من مات في السجن ولم ينه عقوبته.

ظلّ الأمر سرّا. وعندما خرجت وجدت علوان بوزيد في انتظاري، عانقني طويلا. قال لي :

ـ لقد كنت رجلا

قلت معاتبا :

ـ لقد كنت صديقا يا علوان. لقد كنت سببا في ضحايا لا ذنب لهم

ظلّ مطرقا :

ـ كلّنا ضحايا في هذا الزمن. من الظالم ومن المظلوم؟

ثمّ سكرنا حتّى الصبح

كنّا وقتئذ سلاطين يا ولدي. سلاطين في السّجن وفي الحانة وفي السوق نعم في

السوق يا ولدي. كنّا وحدنا أصحاب السوق. الأرض أرض الله والشمس شمس الله نبيع ونكتفي بما نبيع»

تنهد الشيخ

الحائط أمامه والحائط خلفه. زربية قديمة تغطّي أرض الحجرة. العجوز أمامه تتحرّك وتقف. النافذة المفتوحة ثقب واسع في الحائط مدّ الشيخ بصره. السماء كهف مقلوب.

«أمّك هذه يا ولدي، جاءت لتنسيني أمر السبنيورية. ورثت عن جدّي هذه القطعة الصغيرة التّي تعرفها. ظللت سنين لا أفكر في الزواج. موت السبنيوريّة أنساني كلّ شيء. أصبحت قطعة الأرض همّي راودني جدّك طويلا كي أبيعها له، كان وقتئذ سيّدا من أسياد المدينة. الباكيتة في يد والمنشّة في يد وتعالى جاك. كان يملك نصف هذه المدينة. الناس يقولون عنه أشياء كثيرة والله أعلم يا ولدي. أنا لا أتدخّل في أشياء لا تعنيني. قطعة الأرض وحدها تُغنيني..

ـ أطلب ما تريد وأنا أشتري منك

ـ يرحم الله

ـ أترك هذه الأرض وأعطيك أحسن منها في أيّ مكان تريد

ـ يرحم الله.

أرضنا يا ولدي تجاور الحوازة التّي كان قد اشتراها بقصرها كان مستعدّا لدفع كلّ شيء من أجل أن أترك له هذه الأرض وأنا لا قوّة لي. الرجل يملك السّلطة في البلد. الفرنسيس كلّهم أصحابه وأنا أشكو لمن؟ حتّى القاضي الشرعي يتعشّى في بيته أتعبني جدّك يا ولدي لكنّني تماسكت. العنز التّي أملكها وجدتها مذبوحة. بعد أيّام وجدت الكلب الذي ربّيته ميّتا. الدّجاجات التّي أقتات من بيضها لم أجد منها الاّ الريش. أدركت أن جدّك قد أعلن الحرب ضدّي. كان يريد أن يكرهني على أن أقرّ

بجلدي. كان أزلامه في المقهى يتندّرون عليّ. جاء دور البغل، الكلّ يهون يا ولدي لكنّ البغل لا. إذا مات البغل سأترك لهم الأرض. قلت «يا راجل آن لك أن تقف وتدافع عن نفسك. يجب أن تعلن الحرب أنت أيضا» قلت «ابدأ بالأزلام ذلك أسهل» وكنت أعرفهم واحدا واحدا. كنت أعلم أن عتروس هو الذي يقودهم يجب أن أضعه على ركبتيه والا انتهى كلّ شيء لكنّ عتروس لا أرض له. لست أدري من أية أرض جاء ولكن لا أرض له. دخلت المقهى. لست أصحاب مقاه ولكني ذلك اليوم دخلت المقهى. طلبت كأس شاي، نظر إليّ عتروس باستخفاف، رفع صوته في وجه النادل.

ـ أعطِ الرّجل كأس شاي يا ولد

ثمّ ضحك بصوته الخشن. كان يريد استفزازي قلت «يا رجل اصمد الوقت لم يحن بعد» رفعت صوتي أنا أيضا :

ـ هات الشيشة يا ولد.

ضحك مرّة أخرى ثمّ التفت الى أزلامه ساخرا :

ـ لقد بعت الدجاجات اليوم

ضحك أزلامه، قهقهوا وتساقطوا على الأرض

رفعت صوتي من جديد

ـ شراب عتروس وأصحابه في حسابي اليوم

صعق. لم يكن ينتظر الجواب، رفع الكرسي الذي كان جالسا عليه وألقاه في وجهي كنت مستعدًا للعراك، تلقّفته بسرعة وهشّمته على الأرض. رمى عتروس نفسه عليّ ولست أدري ماذا حدث. جسدان كقطعتي الحديد يتشابكان، صدمة صدمة وصدمة. وفي النهاية وضعت يديّ في رقبته نهشني أكل يديّ ولكنّي أصررت وفي النهاية رحمته سحبت يديّ من عنقه، كاد يموت يا ولدي ولا رحمة الله لكنت

الى الآن في السجن ولما وجدت أنت يا ولدي وتشيطنت وتعذبت. نهض متثاقلا، متعبا، سحبت منه شهادة الزّعامة، انسحب أزلامه وراءه واحدا واحدا. كنت يومئذ مستعدّا للقتل. السبنيوريّة قتلوها هذا يجوز لكنّ قطعة الأرض التي أملكها لا هذا لا يجوز. هذه المرّة وقف ربّي لحمايتي. لقد حماني مرّات كثيرة ولكن حمايته لي هذه المرّة أجلى. في اللحظة الحاسمة أوقف أصابعي، ضغطة واحدة ويذهب عتروس الى الجحيم وأغوص أنا في ذلك السّجن البارد. رحمة ربّك واسعة يا ولدي، في تلك الليلة كنت على عتبة السّجن. هذا لا يهمّ يا ولدي رقابنا ليست بأيدينا، جدّك رحمه الله بلغته الحكاية، كان رغم قسوته لا يحبّ الفضائح. كان أزلامه يروّعون الناس وكان أحيانا من أجل رغبة ملحّة لا يجد حرجا في أن يدخل أحدهم السّجن أو يضع عنقه في المقصلة. لقد كان رجلا يريد أن تسير الأمور بدون فضائح قبل أن يترك المقهى أخذته من أذنه وعركتها فأذعن من جديد، أجلسته أمامي وطلبت له كأس شاي. كان بعض الفلاحين حولي يقولون النكات. هزيمة عتروس أسعدتهم، انهار جبل الرّعب في قلوبهم. قلت له :

ـ اشرب الشاي من ثمن الدجاجات يا ولد الكلب

رفض، عركت له أذنه من جديد :

قلت له اشرب.

تناول الكأس، شفط منه مرّة أولى وثانية. هدأ قليلا. أنا لا أريد اهانة الرجال يا ولدي. الرجل مهما كان فهو دائما رجل. لكنّني يا ولدي كنت أدافع عن نفسي

ـ من الفاعل يا عتروس

سكت فصرخت في وجهه.

ـ أنا أعرف الفاعل يا رجل. لكن أرجوك أن تعلنها بنفسك أمام الرّجال. قلها.

سكت أيضا، عاودني ذلك الغضب الجنوني ورفعت يدي وصفعته. ثمّ قدّمت له كأس الشاي من جديد.

ـ اشرب من ثمن الدّجاجات يا كلب، وقلها

لقد أهنته كثيرا يا ولدي، سامحني يا ربّي، لقد أهنته كثيرا. وضع شفتيه مرّة أخرى وتشفّط، لقد فرّ أزلامه، ذهبوا يعلمون سيّدهم وفي النّهاية تكلّم.

ـ أنا مأمور وأمري لله.

ـ من أمرك ؟

ـ أنا مأمور، ياربّي، أنا مأمور

ـ قل من أمرك أمام هؤلاء الرّجال، أسيادك هؤلاء

ـ صاحب الحوازة هو صاحب الأمر والنهي يا سيدي

ورحمته، تركته يمضي بعد أن جعلت الرّجال شهودا وفي اليوم التالي، جاءني أحد الأزلام :

ـ صاحب الحوازة يريدك

ـ من يريدني يأت اليّ. أنا هنا في أرضي

بعد يومين جاءني. كنت كما تعرفني أرفع المسحاة وأهوي بها في الأرض، جلست على الفارس[1] والتفتّ اليه. ظلّ يتكلّم ويتكلّم. هذه المرّة لم يعد يرغب في الأرض بل يريد الآن أن يشتريني قلت له :

ـ يرحم الله، نفسي هذه لا يملكها الا خالقها.

ثمّ وقفت وقلت :

ـ شوف يا سيدي، أنا أيضا لا أريد فضائح، ولا أريد مالا. هذه الأرض تكفيني وهذه الشبابة تغنيني. دعني يرحمك الله

ذاك اليوم تركني، لقد عقد معي صلحا مؤقتا

ذاك اليوم رأيت أمّك قبل أن تكون أمّك، كانت بنت أكابر لم أرها من قبل. كانت تحمل شيئا من السبنيوريّة التّي أحببتها. مرّت مع رفيقتها بجوار الحقل رمقتني

بنظرة حسبت لها ألف حساب، لقد سمعت عنّي أشياء لا شكّ، وجاءت لكي تراني، ولكنّ يا ولدي أصارحك، انتابتني رعشة أذهلتني. لقد انتصر جدّك عليّ هذه المرّة. صعقتني نظرتها، المسحاة تفلت بين يديّ ولم أعد قادرا على رفعها. نظرة السبنيورية هي هي جلست على الفارس وقلت «هذه سأتزوّجها، أبوها صاحب الحوازة أو صاحب الشيطان، أتزوّجها». أمّك ذكّرتني بالسبنيورية يا ولدي، ماذا أفعل ؟

ظلّت تنظر اليّ، المرأة عندما تنظر اليك تريد أن تكون لها لمدّة لحظة أو ساعة أو طول العمر. عندما تنظر المرأة اليك غامر معها، أبحر ولا تخش فلن تخسر شيئا. ظلّت أمّك كلّ يوم تمرّ مع رفيقتها جوار الحقل. كانت تنظر اليّ ولا تقول شيئا آخر وذات يوم تربّصت بها.

أوقفت البغل في وجهها وسط الطريق، رأيت الحيرة في عينيها، النّاس والقيل والقال والحيرة في عينيها لم أرد أن أعدّ بها أكثر. انسحبت وتركتها تمرّ وقلت «هذا يكفي، إذا لم يجيء الردّ لا فائدة في المواصلة المرأة ذكيّة أنا أعترف بذلك، بحركة واحدة تفهم كلّ شيء ومن الغد جاء الردّ أرسلت لي رفيقتها ودعتني الى «الهيشة» عند الظّهر.

ـ إذا كنت تريدني أنا لك

ـ أبوك سيرفض

ـ أهرب معك

كلامها عظّم شأنها. أمّك يا ولدي عظيمة مثل السبنيوريّة ولكن المعركة عادت من جديد مع جدّك. أزلامه أعلموه بقصّتنا. جائني هذه المرّة بنفسه :

ـ «اسمع يا رجل، هذه المرّة أصعد بروحك» تركته يتكلّم تكلّم كثيرا، هدّد كثيرا لكنّه كان يخشى الفضيحة ـ التقيت بها وقلت :

ـ يا وليّة، أبوك رافض ويهدّد. وأنا ليست لي حيلة

رمقتني بنظرة قتلتني يا ولدي وأيقظت الحقد في أعماقي ماذا أقول لها أيضا، ستعتقد أنّي خذلتها، الصّورة التي نسجتها في مخيّلتها عنّي ستحترق. هي أيضا آمنت ببطولتي. أنا لا أريد أن أكون بطلا يا ولدي. أردت أن أدافع عن نفسي، حادث العتروس وخبر صعلوك بلاد فريقا توّجاني بطلا.

رمقتني من جديد وقالت :

ـ أهرب معك، ان كنت تريدني

لم أدع لنفسي مجالا للتّفكير. امرأة جميلة كأمّك تريد الهرب معي وأنا أجبن. امرأة كأمّك أذهب معها الى الجحيم. قلت لها :

ـ في منتصف الليل ألتقي بك عند الهيشة.

أسرجت البغل، ذاك البغل كان رفيقي الوحيد في المهمّات الصّعبة انّك تعرفه. اشتريته جحشا، ربّيته بيدي، درّبته بنفسه عذّبني وعذّبته، أسقطني حتّى كاد يكسر عظامي. لكنّي ركبته وخرجت به من المدينة وأركضته يوما كاملا، حتّى سبل اذنيه ولمّا كبرت أنت يا ولدي، وجدته مطواعا. صلب وسبل أذنيه لكنّه أيضا أراد أن يمتحنك مرّات كثيرة وكنت كأبيك يا ولدي لكن انا الآن أين وأنت أين ؟»

العجوز تجيء وتروح، تدخل الحجرة وتخرج منها. مدّت كأس الشّاي الى الشيخ، انتبه، السيقارة في يده انطفأت. نظر اليها، هذه هي المرأة التي رماها وراءه على البغل في لياقة مظلمة ذات يوم وذات عام. كان البغل يركض وكانت وراءه مشدودة اليه. كان البغل يركض وكان يفكّر الي أين يمضي. ظلّ الليلة كاملة يفكّر. برّ افريقا ؟ لا برّ افريقا بلاد السبنيورية والسبنيوريّة ماتت، وهو لم يعد يرغب في الحرث وحفر المطامير، فكّر وفي النّهاية قرّر «الجبن» لا أحد يلحق بنا هناك، الفرنسيس أنفسهم لا يعرفون موضعا».

صعد الجبل، الممرّ الملتوي والصّخور الناتئة والليل المظلم ....

المقطـع الثّـاني

الواقع، الواقع، الواقع، وحبيبة بنت الخال ؟كنت تراها في المدينة النّائية وكنت ترى شعرها ليلا طويلا يغطّي عذابك وبسمتها نافذة على العالم وقد بدأت تدرك متاعب الحياة حبيبة الطفلة أكبر من نساء الأرض جميعا، لكن المعضلة قائمة كان أبوك يكتب اليك في السّجن «يا ولدي أتمنّى أن أراك يوما الى جانبي قبل أن أموت خالك ما ترك لي شيئا. البقرتان هدّتا صحّتي ولم يبق فيها شيء وفي النّهاية ماذا بقي لي ؟ البقرة الرّماديّة قد ماتت والأخرى باعها خالك، يا ولدي يلعن بو لحّاسين القلم، كلام معسول ولا خير ولكن لا عليك .. » حبيبة كبرت يا ولدي تقول لك أمك، أصبحت أجمل نساء الدّنيا، أتمنّى أن تخرج من السّجن وتتزوّج حبيبة، يا بخت من يتزوّج حبيبة عفّة وجمال لا تجدها في بنات العاصمة هي أين وبنات العاصمة أين . ».

وكنت في ساحة السّجن تنظر الى السماء وتفكّر في حبيبة حبيبة يا شمس تذيب البرد الذي يقتلني، حبيبة يا أحلى من الدّنيا» ويجلس اليك الرّفاق.

ـ ستقتلك هذه المرأة، رومنطيقيّة تحرّر منها وابحث لك عن علاقات موضوعيّة

ـ لكن حبيبة آخر ما بقي لي بعد ما ذبحتني بنت التّاجر

ـ تحرّر يا رجل لقد أصبحت محسوبا على التنظيم

كان الرفاق في السجن يتحدّثون عن كلّ شيء، يسبّون الحكومة والحاكم ومدير السّجن والحارس.
ـ يلعن بو الروس والأمريكان.
ـ وحلفائهما

ولكنّك كنت تفكّر في حبيبة، أحببت حبيبة بعد ما احببت بنت التاجر، حبيبة صنف، وبنت التاجر صنف. لكن طيفها لا يزال قائما أمامك، عيناها، شعرها، أنفها المستقيم وماذا بعد؟

تنزوي بك أمّك في زكن من أركان الحجرة تجمع لك أدواتك المدرسيّة وتضعها على المنضدة كأنّها تمسك بأشياء مقدّسة:
ـ لا تأخذ كلام أبيك مأخذ الجدّ، أبوك لا يعرف الدّنيا. الدّنيا بالقراية. أنظر الى خالك، كان لا يملك شيئا. أدخل بيته. انّه موظّف كبير، اشترى ما شاء وتزوّج بمن شاء. أنت أيضا ستصبح موظّفا وتتزوّج حبيبة بنته.

لكنّ أباك وهو يراك ترقي من قسم الى قسم بدأ يخفي شيئا من نقمته على المتعلّمين ويوم سفرك الى العاصمة بكى طويلا ثمّ مسح دموعه قائلا:
ـ أنا أعرف السّفر. ما كنت أودّ أن تسافر يا ولدي وبما أنّك أردت فأنت حرّ يا ولدي.

ولكنّك ذلك اليوم أدركت أنّك تسافر من أجل حبيبة بعدما سقطت بنت التاجر، كنت تعلم أن عشّاق حبيبة كثيرون حتّى التاجر الكبير أصبح يتحدّث عن حبيبة وهو يراها تشقّ ساحة الحيّ لكن أمّ حبيبة فطنت.
ـ حذار. التّاجر مطلاق، عينه على البنت، تموت ولا تناله
ـ ماذا تقولين؟
ـ رجل نسوان دعنا من شرّه.

لماذا تغوص الآن في ذاكرتك ؟ متعب أنت الآن ولا شكّ. الاتّهام والقضاة والمرافعات والشرطيّ الكامن الآن في مقعده. يسبّك الآن في سرّه ويسبّ من وضعك في ذمّته.عاهرته الآن تنتظره في البيت لكنّك كنت عاشقا. العشق، العشق، العشق ! أن تفرح بك امرأة، أن تبتسم إليك، أن تفتح لك قلبها أن تهبك نفسها وتغيّبك عن الدّنيا .... ! بنت التّاجر تزوّجت بسرعة مذهلة. جاءك أبوك وأنت في ساحة الحوش تطأطىء رأسك

ـ يا ولدي لا تكترث كثيرا، ستتزوّج أحسن منها ومن يدري؟

الدنيا حظوظ يا ولدي.

ثمّ سكت كأنّه ينتظر جوابا ثمّ فتح حكّة النفّة وأدخل فيها اصبعيه وقال متألّما :

ـ تعلم ماذا قال لي أبوها ذاك التاجر. أبعد هذا الولد عن البنت والا أسمعتك ما تكره

لكنّي غضبت. غضبت يا ولدي أجبته صائحا «انّه متعلّم وسيأخذ الباكالوريا» تعلم يا ولدي ماذا قال ؟ قال لي «يبلّها ويشرب ماءها الباكالوريا» أمّك كانت تسمع ولا تتكلّم. أمك كانت تعدّك لحبيبة. حبيبة التّي كانت رسائلها أيضا تأتيك في السجن بعدما اطمأنّت على بنت التاجر «أمّك تسلّم عليك، تقول لك السجن لا يدخله الاّ الرّجال». لكنّها لا تذكر شيئا عن أخيها، عن خالك خالك كان دائما يحذّرك. كان يقول لك دائما :

ـ حذار يا ولد أختي من الخلطة السيّئة. العيون عليك أترك هؤلاء الأشقياء. إنهم سيذهبون بك الى المشنقة.

ويأتي إلى أمك قائلا :

ـ يا أختي ولدك هذا لم يأت الى خاله. إنه سيدخل السجن ولا أحد يخرجه منه.

كنت وقتئذ تقف على مدارج الكليّة وتخطب في الطلبة ثمّ عشت بعض لياليك

أرقا لا يراودك النّوم ولا تعرف الرّاحة وبعد ذلك أحسست أنّك قد فكّرت طويلا ولذلك قررت «عهد الخطابة على مدارج الكليّة يجب أن ينتهي، إما أن أكون أو لا أكون ووجدت نفسك في خليّة داخل التنظيم»

ـ الوطن في منعرج خطير. وطني ليس...

ـ المرحلة في الوطن خطيرة. انهم مستعدّون الآن لأيّ شيء

وصدق الخال في كلامه : جاء في ليلة برد قارس الى أخته التي وجدها ترتعش من حمّى المفاجأة.

ـ أرأيت ؟ ابنك ذهب في داهية، انّه يقاوم السلطة يا أختي هذا الولد لا أعترف به، ليس لأختي ولد كهذا

كان الأب ليلتئذ يحترق على الجمر، كان يسمع ويرى هيجان صهره لكنّه لم يستطع أن يكبت غضبه :

ـ جئت تزيدنا همّا على همّ يا رجل، لحّاسين قلم طزّ والله الواحد لا يستطيع أن يعوّل عليكم في شيء.

كانت الشرطة تراقب تحرّكات الرفاق ويوم الاضراب في الجامعة أوقفوا جميعا ولم يبق لك إلاّ طيف حبيبة في ساعة ألم «يا حبيبة لقد تعذّبت، نعم لقد تعذّبت، لقد أهانوني أساؤوا اليّ. لقد تحطّمت يا حبيبة» كنت عندما تراها في السّاحة يحيط بها الأطفال الصّغار تغضب وكنت تقول حبيبتي لي وحدي. اللّعبة التي ظللت زمن الطفولة تلعبها معروفة. تظلّ حبيبة وسط الساحة سيّدة القوم جميعا ثمّ يأتي الأعداء من كلّ حدب وصوب لاختطافها وعند ذلك يأتي الفارس العربيّ على جواده رافعا سيفه ووراءه جيش جرّار. جيشان متقابلان أعراب من ناحية وعرب من ناحية وحبيبة بين أخذ وردّ. أنت كنت الفارس والجواد كان عصا طويلة من الجريد والسيف قصبة قصيرة يابسة ويظلّ الجيشان يتقابلان كلّ يوم من أيّام الشتاء والربيع بعدما يخرج الصبية من المدرسة وتظلّ الفارس العربيّ الذي لا يغلب وعندما كبرت

ترك الفارس ساحة الوغاء لكي يجد الكتب ملاذه وعلوان بوزيد حبّه الكبير «علوان بوزيد ... أنا وحدي الذي يعرفك، هذه الجذاذات وقطع المنثور وقصائد الملحون والرّسائل أحرقها ولأدخل السجن ولكنّ حياتك يجب أن تخرج من ذاكرتي وذاكرة الناس الذين عاشوا معك وعرفوا معنى التّعب ولكنّهم لم يموتوا. كان العمدة عمدة وكان يدخل الدكان ليعي ذاكرة الفلاحين من سكان الحي. كان يقول دائما :

ـ بلاش بطولات، فرنسا بلاد عظيمة والكل من رحمة الله ولطفه
ـ ولكن نحن اللّي خرّجنا فرنسا.
ـ يزّي بلا تبزْنيطْ، الواحد فيكم، صكّة بيهم تفل فيه
ـ وعلوان بوزيد ؟

يغضب العمدة هذه المرّة كعادته :
ـ يلْعَنْ بو علوان بوزيد. علوان بوزيد الدجال ولّى راجل ؟
ـ ماهو طلع للجبل !
ـ واش بيه حتّى أنا طلعت الجبل

ويواصل أبوك حكايته وهو يضحك :
ـ والله العمدة ما يعرف الجبل كان للترفاس

ولكن كيف ذهب علوان بوزيد الى الجبل ؟

يروي أبوك الحكاية «وعاد إلينا علوان بوزيد بعد غيبة طويلة وقد ابيضّت قشرته وظلّ ساكتا يطأطىء رأسه إلى الأرض ولمّا مددنا له الكأس الثانية عاد الينا في شبه انشراح :
ـ لا ينفع المرّ الاّ هذه الكأس المرّة. زيدوني كأسا أخرى

ونرفع البرّاد ونملأ له الكأس من جديد فينبسط ويعود الينا يحدّثنا. كان علوان بوزيد يحدّثنا دائما عن سوزان وكان كلّما تذكّرها يلعن نفسه :

ـ تلك المرأة قلبت دماغي رأسا على عقب كانت جميلة تعمل في حانة سان لوي، تجلس وراء المشرب أمام الكاسة تقبل النقود. في تلك الأيام قذف بي الفرنسيس في عاصمتهم وقالوا لي : اصنع حياتك في هذه المدينة ولتمت إن شئت ظللت شهرا كاملا أبحث في النهار عن الشغل وفي الليل أتعلق بتلابيب أول شرطيّ أجده في الطريق فيحملني الى أقرب مركز شرطة فأبيت ليلتي هناك وفي الصباح أعود الى شوارع المدينة أبحث عن الشغل. وذات يوم رأيتها من خلال النافذة وقد كنت على وشك الموت فقصدتها وأعَدْتُ عبارتي «أمبوش». سألتني ماذا أستطيع أن أفعل قلت أكنس وأغسل الكؤوس. غابت لحظة ثمّ جاءتني وأدخلتني الى المطبخ وأفهمتني أنّي أستطيع أن أعمل هنا وأنام أيضا.

ويسكت أبوك ثم يسألك :

ـ لماذا أنت مهتم بعلوان بوزيد يا ولدي ؟ أنت الآن رجل متّعنا بفلوس الحكومة وأخرج من ذهنك قصّة علوان بوزيد.

ـ لكن ثمّة حقيقة أريد أن أعرفها.

ـ قلت لك يا ولدي دعك من قصّة علوان بوزيد وأنت ابن فقراء

لن يعلم أبوك قصّتك مع علوان بوزيد ولن يفهم بعدها المأساوي العنيف فتحاول أن تبرّر حبّك له

ـ انه صديقك يا أبي أريد أن أعرفه وهذا يكفي

فيبتسم عندئذ ويعود الى قصّته وهو لا يخفي انفعاله «كانت سوزان امرأة جميلة ولكنّ حديثها كان أجمل. كان أبوها رأسا من رؤوس الفرنسيس في الجزائر. كان يملك العمارات والأسهم والأراضي الخصبة ولكنّه كان يكره العرب. قال علوان : كانت سوزان تناديني باسمي كما أسمعه منكم بلا تحريف ولا فَرْنَجَة ثمّ لم تلبث أن حدّثتني عن نفسها وعن الناس في فرنسا. كانت سوزان تخرج الى الشوارع ترفع اللافتات مع الفلاسفة والأحرار، كانت تلعن الاستعمار والفشستيين والنازيين. كنت أسألها :

ـ من هم الفاشست والنازيون ؟
ـ العنصريون أعداء الحريّة والانسان
ـ هتلر وموسليني ؟
ـ انهزم الطليان والألمان ولكنّ أعداء الحريّة باقون.

ولعنت هتلر وموسليني عشرين مرّة في تلك المرّة. أنا الذي تسلّقت الجبل وغصت في الأنهار والسواقي أدلّكم الطريق والثنايا وأبحث عن أخبار الفرنسيس، اللّعنة على أمّك يا هتلر.

ويقف علوان بوزيد كأنّ قطعة من الخشب وقفت في حلقه :
ـ لقد قتلت في ضوء النهار
ـ قتلت
ـ أمام المقهى كانت الكؤوس في يدي وإذا بطلق ناريّ يثير القاعة وخرجنا جميعا. كانت سوزان في دمها.
ـ كنت تحبّها ؟

سكت، كانت سوزان تعلّمه كيف يكون الانسان حرّا وعاد الى الأرض يقلب ترابها من جديد، وقف عليه يومئذ شيخ المنطقة هازئا
ـ أرأيت ماذا فعل بك الفرنسيس ؟

لم يجبه فواصل الشيخ :
ـ اشكر نعمة الفرنسيس يا رجل وبلا عناد

لكنّه لم يستطع أن يسكت هذه المرّة. رفع المسحاة وبصقَ على الأرض :

ـ لا خير لا في ذا ولا في ذا

واكتفى بذلك. وظلّ في ليله الطويل يأتيه الأصحاب :

ـ ما في صحبتكم منفعة
ـ انّنا نكره الفرنسيّين مثلك لكنّنا نقاومهم بالسياسة.
ـ قلت ما في صحبتكم منفعة
ـ نحن نهيّء اضرابات ونعدّ مظاهرات
ـ هذا لا ينفع

وعندما يلحّون يصيح في وجوههم :
ـ عندما ترفعون السلاح أكون معكم

يسكت أبوك وتفهم أنت القصّة. ظلّ علوان بوزيد يقلب التّراب ولكنّ سوزان الغصن الذي لا ييبس، سوزان الحلم، سوزان القلب الذي ينبض، كانت تسكن اليه في آخر الليل وتطلب منه أن يقرأ عليها شيئا من أشعار العرب «اقرأ لي أي شيء عن الخير والحبّ والعشق، نعم العشق» ولكنّه لا يستطيع أن يقرأ لها شيئا ذا بال، بل ينظر الى البحر في عينيها ويقول «أهلك ما علّموني شيئا، ها أنا كما ترين، صعلوك خارج من الغابة» لكنّها كانت ترتجف، كان البرد قارسا وكانت المدفأة بفحمها ونارها غير كافية لاذابة البرد في صدرها. كانت تقول «اقرأ عليّ شعر المجنون في ليلى كان هناك يلتقي بها على كثيب من الرمل وكان القمر يرسل أشعّته الهادئة. كانت ليلى واحة حنان ودفء، في عينيها كان الليل يجثم والمجنون تحت قدميها يمدّ إلى شفتيها وعاء اللّبن. كان يسقيها وتشرب وكان الرّمل والقمر والجواد والهواء الساكن ولا شيء غير ذلك».

ـ من أين لك كلّ هذا ؟
ـ قرأته
ـ أين قرأت كل هذا ؟
ـ شاعري لوي أراغون Louis Aragon

ويغضب، كانت المدفأة في الحجرة تشتعل ولكنّه غضب «هذا هراء، كذب،

كذب» ويسكت، كان يرى سوزان مضطربة كانت تدنو من المدفأة والنار تشتعل وهي لا تفلح في رفع البرد عن صدرها، كان لابدّ أن يكذب عليها فيحدثّها عن العشق الذي لا يفنى وتعود الى ذاكرته دروس الشيخ السنوسي في الجامع الكبير «نحن نعشق ونفنى من أجل أن نعشق، نشنق ونقطع أطرافنا من أجل العشق، قصصنا كلّها عشق. ولد وعاش ومات وعشق، مات المجنون معتوها يجول الصحراء على قدميه، عمامته أخذها الرّيح وحذاؤه أكله الرّمل ولسانه مدّه القيظ، عشائر العرب تتفانى ، ترفع السيوف وتسيل الدماء والسيّد العربي يتزوّج ليلى يبتزّها، يغتصبها، يفنيها ويأكل من لحمها وعندما يشبع يلقي بفواضله الى الكلاب السائبة والسادة يمسحون شواربهم ويشهدون الولائم ويدعون للسيّد العظيم بطول العمر ويذكر الشيخ السنوسي الذي كان يشدّ عمامته ويتلاعب بلحيته الطويلة ويصف عشقه لله «مات الحلاّج عاشقا، مزّق جلده بأظافره أفنى جسده بالسياط حرّم على نفسه النّوم والخبز والماء لكنّه قتل مصلوبا كالمسيح، أوقفه سيّد المدينة، اتّهمه بالعهر وتهريب الافيون ومضاجعة النساء بدون صداق، الزواج بصداق وما بعد الأربعة كفر وجاء الحرّاس وأخذوه من قدميه وذراعيه وصلبوه في شوارع المدينة هذا عشقنا يا سوزان، لكن سوزان كانت ليلتئذ تعيش نهايتها، كان الأوغاد يتربّصون بها. كانت تقول «أنا ليلى، إئتني بمجنون من مجانين العرب، ليفنيني لكنّها فنيت، كان الأوغاد مجانين، كانوا يجوبون الشوارع ويقولون «ما وراء البحر فرنسا» وفي تلك الليلة عاودته تلك الحالة الجنونيّة، جلس على ركبتيه.

مشى وحده في شوارع المدينة
مشى صامتا
دفعه الحنين الى تجاوز ما بينه وبينها
وبكى
ناح الخريف على أديم الأرض الرماديّة
جسدها أكّد روعة الانتماء

علوان بوزيد شاعرك المجنون، لعبت هذه المرأة برأسه، جعلته يقول الشعر كمجنون العرب، لكن لا عليك.

يتربّع أبوك على الصخرة المنتصبة في الحوش ويقول «أقسم بالله العظيم أنّه كان عاشقا، عندما عاد الينا كانت زوجته تشكونا منه، كانت تقول «لم أعد قادرة على فهمه، هذه السّنة الّتي عاشها في المنفى قلبت رأسه، لم يعد يكلّمني الاّ نادرا.

يحبّ أطفاله، يصمت، ولا يصيح فيهم، لا يعنّفهم الأرض همّه ليقلب التراب حتّى يفنيه التّعب الى أن جاءني ذات ليلة وقال لي : يا امرأة أنا طالع الجبل الأولاد أمانة في رقبتك أنت وحدك والأولاد فقد أعود اليكم وقد لا أفعل، الله أعلم لقد جاء الوقت لكي أفني غضبي» ويعلّق أبوك على روايته قائلا :

ـ كان النّاس وقتها يتحدّثون عن الحكومة التّي سافرت الى فرنسا وعن المفاوضات. أتى الأصحاب يجمعون منّا بعض النّقود والمؤونة وكنّا نسألهم «لماذا كلّ هذا ؟» «الرّجالة طلعوا الجبل وهم في حاجة الى المؤونة والسّلاح» وسرعان ما أصبح الناس يتحدّثون عن علوان بوزيد عن بطولات علوان بوزيد وكان شيخ المنطقة يجدنا الى جدار المسجد فيوقف درّاجته ويصفّق بيديه «المجنون مجنون، علوان بوزيد دائما عدوّ فرنسا، هتلر وما أدراك خسر المعركة وعلوان بوزيد يحارب فرنسا ببندقيّة الصيد، أي بطولة هذه ؟ المجنون مجنون. هذه المرّة سيأتينا رأسه في قفّة، قوموا يا أولاد واحفروا له قبره» .

لكن علوان بوزيد زرع فينا شيئا من نفسه فأصبحنا نداعب الشيخ ونقول له «فرنسا ما كان لها لتنتصر وحدها لولا مساعدة الأمريكان فيلعننا الشيخ ويتوعّدنا «يا جماعة احترموا الماء والملح الذي بيننا، لا تردّدوا كلام هذا المعتوه، انه ذاهب الى حتفه بنفسه» .

وفجأة جاء الأمر «انزلوا من الجبل وسلّموا السّلاح» لكن علوان بوزيد ظلّ على الجبل : كان يقول «أفني ولا أسلـم السلاح» وكان يأتينا في أعقاب الليل ملثّما

«وحدي سأقاوم، ماذا صنعنا؟ فرنسا باقية وماذا صنعنا ؟» وأصبح الأصحاب يبحثون عنه وكانوا مستعدّين لكلّ شيء، أرسلوا اليه أوعدوه بكلّ شيء ولكنّه رفض «إذن أنت تقاومنا» «العدوّ غريمي ولكن» ويسكت أبوك ثمّ يقول :

ـ بالله لماذا ذكّرتني يا ولدي، اترك هذا الموضوع يا ولدي..

ويقفز من على الصخرة وعبثا تحاول وتبقى القصّة بتراء بلا نهاية. أمامك الآن الحارس، السيارة متثاقلة والحارس أخذه النوم، في الأمام بقي السائق وحده يدندن أغنية بشعة بصوت خشن. نسي السائق بضاعته، يلوك فراغه بصوته الخشن. في هذه اللحظة تحس انك مع نفسك، انك مع هذا العالم الساخن، في مقهى المدينة يجلس أمامك شكري عبد الرحيم ورفيقته تلك المرأة التي تشاهدها من خلال النافذة ابن كبير التجار وبنت العامل المتقاعد. ثنائية تضحك احيانا لكن كل شيء ممكن في هذا العالم الساخن يصرّ شكري على أن يدفع لك اليوم ثمن القهوة ثمّ يهمس.

ـ أين وصلت قصتك مع علوان بوزيد ؟

ـ وعرفت أنت الآخر؟

ـ قاقوا أشار اليّ حاجتك عند حمدي رجب ؟

ـ وما حاجتك ؟

ـ تحقيق صحفي، يهز هذا العالم، يفرقعه.

صديقك الصحفي، ابن كبير التجار، في حاجة هو أيضا الى فرقعة هذا العالم، يريد هو أيضا أن يفرقع العلاقات أن يجدّد الحياة أن يجدّد الحياة بشكل أو بآخر، أبوه يسمح له الآن بكل شيء يشتغل بالسياسة خارج الحي يشتغل بالسياسة مع الطلبة هذا لا يهم ليحرّك الآن الحياة بالشكل الذي يريد لكنه في الوقت المناسب سيقف. ذات يوم دخل عليك مع رفيقته منهكا وفهمت القصة. كان يجريان، أشعة الشمس والحفر والاسفلت والحجارة والحي الشعبي والمارة، والعرق والدم الذي

سيسيل من الجرح والحذاء بلا قدم، وفي لحظة كان العراء يحيط بهما، أحسا بالتعب والارهاق، مسكته من يده وصاحت.

ـ هات يدك. دم؟
ـ الدم يغلي، لم أحسّ شيئا الا الآن.

ذاك الصّباح كانت الكليّة تغلي، كان كلّ شيء مهيّأ للصدام

ـ اليوم إمّا هم أو نحن
ـ الحسم بأيّة طريقة كانت
ـ لا ينفع العنف الا العنف

ذاك الاجتماع لم يتمّ، سرعان ما بدأت المناوشات وبدأ الخطباء يتساقطون، ثمّ أخرجت الا سلحة، وطلبت الأطراف المتصارعة المدد.

ـ عدوّنا من الداخل ويجب تصفيته
ـ الجهاد في سبيل الله حيثما كان الجهاد

ظلّت حياة الريحي ممسكة بذراع رفيقها، كان الوقت ظهرا وكانت الشّمس أواسط الربيع ترسل أشعّتها الحارة وكانت الحربة الملقاة وراء الوادي الملجأ والملاذ. شمّر على الذراع، كان الجرح عميقا وكان الألم يشتدّ نزعت حياة الريحي قميصها وشدّت به على الذراع المجروح.

ـ لم أكن أعتقد أن الصّدام سيكون في هذه الشدّة.
ـ الصراع بدأ ولكنّه لم ينته
ـ جرح كثير من الرّفاق
ـ ذاك الثمن

كانت حياة صامتة تنظر الى قطرات الدم التي جمدت على الذراع كالحصيّ السوداء، ليس وحده المجروح، كثير من الرّفاق جرحوا أيضا، السلاسل والسكاكين

والقوارير الفارغة والشعارات، «احسم مع العملاء، وطنيّة مستمرّة، إصلاحية على برّه، مقاومة اليمين الرجعي» الثورة من الجامعة ! كانت تمسك بالذراع المجروح وتنظر الى الخرائب وراء الوادي أصابع اليد ليست واحدة. قصور وخرائب، كبار وصغار أغنياء وفقراء بنت العامل وولد التاجر. هذه المعادلة الاجتماعية القائمة. ستتعب بنت العامل وستأتيك طيرة مكسورة الجناح.

توقف الدم، كان شكري عبد الرحيم كالطفل، وكانت اليد على الذراع كواحة في يوم صيف عنيف وكضمادة البنّ على جرح البلّور

ـ الدوامة. لا تستطيع أن نخرج من الدوامة.

ـ النقابة، أي نقابة وأي تمثيل ؟

ـ نحن نعكس الصراع الطبقي.

ـ لكن أين الشعب ؟

كنت تفكر في أمر هذه المرأة التي يرافقها صديقك كنت تقول دائما ... حياة هذه شجاعة ومن خلال النّافذة فتحت قلبك من جديد ورتقت الجرح الدامي لكنّك لم تدرك شجاعتها إلاّ اليوم، كانت حياة تحدّثك عن المشاكل القائمة وعن القوى المتصارعة وتعبّر عن موقفها «الحسم» أمّا رفيقها فهو يصمت. المستقبل أمامه، شهائده الجامعيّة، مقالاته الصحفيّة، تركة كبير التجّار. كلّ شيء على أحسن ما يرام ومع ذلك فهو يلعب اللّعبة، دعاه المسؤول إلى مكتبه، هشّ له، طلب له قهوة وسأله عن صحّته وأعماله.

ـ يا سيد شكري، أعلمك انّ كلّ السلطات السياسيّة مهتمّة بمقالاتك ولا تخفي أعجابها أيضا

يسكت الموظف قليلا ثمّ يقول

ـ للبلد الآن مكانة في العالم العربيّ، الجامعة العربيّة، اخواننا العرب، المؤسسات العربيّة والتجربة الديمقراطية، كلّ هذا يجعلنا نحترم كل من يحاول أن يكتب بصدق،

وبمسؤوليّة أيضا يسكت قليلا يتناول سيقارة، يشعل عود ثقاب، يطفئه قبل أن يشعل سيقارته ويواصل :

ـ في الواقع نفكّر الآن في مشروع اعلامي في مستوى المكانة التي أصبح عليها البلد ونحن في الواقع في حاجة الى أمثالك، فكّر في هذا الاقتراح ورد علينا

هدنة أم مناورة ؟ كبير التجّار شرع الآن في لعبته. الولد بدأ يتجاوز حدود اللعبة الخطيرة يجب التفكير في ايقافه. قال كبير التجّار يخاطب نفسه .. ليس المهمّ أن يكون الولد تاجرا، ما أملك عائد اليه. لكنّه يمكن أن يفيد تجارنا بطريقة أخرى لكن حياة، المرأة الشقراء بنت عامل اللميناء كانت وراءه شعلة من نار. وولد التّاجر لا ينظر الى فوق ولا الى تحت. بنت عامل الميناء المتقاعد محطّة. انّه يريد أن يحرك الماء الرّاكد أن يحرّكه فقط لكن الماء الآسن يعود الى ركوده. ولد التاجر لا ينظر الى فوق ولا الى تحت، قطعة غيار تلزم مكانها في آلات المصنع. ولد التاجر كبنت التّاجر طينة واحدة، انت نظرت الى فوق، كانت ابنة الجيران كانت جميلة وفاتنة تقتل بنظرتها، أبوها التاجر الكبير، تذهب الى المعهد ولكنّها كانت جبل كبرياء كنت تنظر في عينيها الجميلتين الوقحتين وفي الليل عندما تستلقي على فراشك تظلّ تراودك صورتها وتحرق مخيّلتك وذات يوم أوقفتها في عرض الشارع لكنّها لم تردّ وفي المساء جاءك أبوك غاضبا.

ـ ماذا فعلت يا ابن الكلبة ؟

واعتراك حياء مباغت لكن أباك سرعان ما عاد الى رشده، فوضح يده على كتفك :

ـ يا ولدي، أقذف سنارتك بعيدا، هذا التاجر رجل فضائح ولا يرحم مالنا وماله ؟

ومنذئذ نشأ العنف في قلبك، ظللت تنظر اليها في عينيها الجسورتين.

وكبرت البنت ومعها كبر عنادك :
ـ يا ولد ماذا تريد منّي ؟
ـ أحبّك.

وماذا بعد الحبّ .. ؟

لم تستطع أن تجيب، ما معك شيء غير الحبّ، فبعد الحبّ لا شيء الفقر والحرمان واليد الفارغة وأبوها التّاجر الكبير وذات يوم القت اليك نظرة حبّ دافئة ثمّ قالت «دعني، ابتعد عن طريقي..» ولم يمض شهر حتّى جاء المقاول الكبير وغابت الجارة عن الشارع والمعهد والحرقة في القلب ظلّت في القلب.

صديقك ابن التاجر في حاجة الى فرقعة هذا العالم بطريقته الخاصّة نسي مشروعه الاقتصادي القضيّة الوطنية. المسيو فريدريك يسوّق بضاعته في مدن العالم الفقير. لكن شكري عبد الرّحيم نقل المسألة على أعمدة الصحيفة هذا لا يهمّ. انّه الآن أمامك يريد مغامرة جديدة. اللعبة عنده لم تنته بعد، يريد بك أنت أن يغامر مع علوان بوزيد.

ـ أريد أن أنشر لك قصّته، أريد أن أعري هذا العالم. أن أنشر الفضيحة وليكن ما يكون. صديقك يريدها مقالات صحفيّة ناريّة، قال له الموظّف في الوزارة «انّك تستطيع يا سيّد شكري ان تكون رجلا ذا مكانة في الدّولة، الدّولة في حاجة الى أبنائها. انّنا نقاوم التخلّف، تمويلات هامّة مشاريع اقتصادية كبرى مؤسسات أجنبية تساعد البلد. يجب الاشادة بهذه المنجزات» لكن اللعبة لا تزال لذيذة، يريد أن يرويَ للناس قصّة علوان بوزيد والناس الذين عاشوا مع علوان بوزيد، لكنّه لا يعلم أن علوان بوزيد هالكا

يقول لك ابوك وقد حدّثه خالك عن بعض حياتك وقد عدت ذات يوم تسأل عن علوان بوزيد :

ـ ماذا تريد من علوان يا ولدي ... أولاده وزوجته ينعمون، بنوا لهم دارا وجعلوا منهم عائلة منتجة وماذا تريد أكثر من ذلك؟ يا ولدي دعنا من مشاكل الحكومة.

لكنك تواصل البحث عن علوان بوزيد، تسأل عنه الأصحاب والاخوان القدامى ولا تجد من يعرفه، قصته ذابت، اخبار من هنا وهناك «يكفي ما قلت لك، يقول أبوك، دعني أعش بقية أيامي بدون مشاكل لا ينقصني الآن الا مشاكل الحكومة والبوليس وسين وجيم ... أنا لا أعرف علوان بوزيد، اللعنة عليه وعلى أمه ... دعني يا رجل... «سقط علوان بوزيد ذات يوم بين القضبان الحديدية، لا الزوجة حاضرة ولا الأولاد ولا الأصدقاء. جائت السيارة وأخذت ولديه وأخاه الى المقبرة «هذا قبر علوان بوزيد» ظلّ علوان بوزيد شهرا كاملا يخطب في العمال في ساحة المعمل. كان يقول «انظروا ماذا بقي؟ لقد تركت أرضي والفاس والمسحاة ... هذه الغازات أفنت أرضي وجئت أبحث عن لقمة الخبز للأفواه المفتوحة ثمّ ماذا أجد؟ الخبزة تصعب ومديرون ورؤساء كسلاطين المماليك، سيّارات ومكيّفات وسواق خدم لزوجات سلاطين المماليك ... أنا علوان بوزيد أنظروا ... هذا ظهري ثقبة الجندرمة من أجل الوطن ! ... الوطن» ! ... وفي مساء يوم حمي وطيسه وجد علوان بوزيد نفسه بين القضبان الحديدية «اعترف والا ثقبنا ظهرك» لكن علوان بوزيد لم يكن له بما يعترف «أنا بلغت الستين والقلب متعب». ظلّ صديقك ينصت اليك يأتي الى البيت، أوراقه وأقلامه وأشرطته وأسئلته. أردت أن تلعب معه اللعبة. المشوار طويل والطريق وعرة وأنت في حاجة الى الصاحب. يسير معك شوطا أو شوطين ثمّ ينعرج الى طريق أخرى وتظلّ في طريقك. قدتجد صاحبا آخر وقد نحسّ في النهاية انك لست وحدك وأن الخفقة في القلب يتأثر لها آخرون وآخرون. الحب يملأ قلوب الناس يا حمدي ففجّر هذا الحبّ الكامن. وفي خاتمة المطاف، سلّمت له جذاذاتك عن علوان بوزيد وأشعاره وأخباره كاملة وقلت له :

ـ هذه حياة رجل أراد أن يصالح العالم على طريقته لكن العالم رفضه. أنشرها لعلها تكون طريقا للتصالح

وفعلا كانت حياة علوان بوزيد طريقا الى التصالح. في يوم وليلة أصبح شكري عبد الرحيم رئيس المؤسسة الوطنية للاعلام. لقد عرف شكري عبد الرحيم كيف يصطاد لكن السمكة هزيلة. أيظلّ الانسان العمر كلّه يبحث كيف يصطاد ثمّ يصطاد سمكة ثمّ أيّة سمكة ؟ سمكة هزيلة في المياه العكرة. وعلوان بوزيد الذي تألّم وجاع وعطش وطلع الجبل وصاح وسفر، ينتهي بهذه الصورة. مجموعة وثائق على الطاولة قد يكون أحرقها وأسلمها الى السلطة. هكذا تنتهي قصة علوان بوزيد «علوان بوزيد ليس نبيّا، كان شاعرا، كان رجلا، علوان بوزيد الوطن كلّه، علوان بوزيد الزيتونة الثابتة في الأرض المجروثة. علوان بوزيد، النخلة الثابتة في الأرض المفاجأة. كبير التجار كسب الرّهان، الولد في المؤسسة الوطنية للاعلام، يطالب بحماية التجّار ويدافع عن الاستثمار الأجنبي، ثمّ كانت الضربة القاضية، صورة علوان بوزيد على أعمدة الصحف وتحتها العناوين الآتية ؟ :

• علوان بوزيد يموت بسكتة قلبية

• علوان بوزيد خائن رفاقه في الجبل.

• علوان بوزيد عميل استعماري خان الوطن عن طريق خليلته الفرنسية وأنت يا حياة يا ابنة عامل الميناء أيتها المرأة التي كنت تراها في عذابك من خلال النافذة، ايتها الطيرة المكسورة الجناح ... يا رب» ماذا يحدث في هذا العالم ؟

أنت الآن محاصر من الجهات الأربع، لولا بعض النقود التي تأتيك من الرفاق لمتّ، أخفيت أخبارك عن أهلك. لو سمع بك أبوك وأنت في هذه الحالة لباع قطعة الأرض التي يملكها وجاء اليك. لكنّك مصرّ على الصّمود، مشكلتك الآن مع علوان بوزيد. غص في أعماق ذاكرتك، أكشف المخزون وبعدها ينتهي كلّ شيء. بعد التعب أخذت سيقارتك بين شفتيك واستلقيت ثمّ وجدت نفسك تتساءل،

متى أظلّ عالة على الرّفاق لقد وفّروا لي كلّ شيء، المأكل والمسكن ومصروف الجيب لكن الى متى سيتواصل هذا الأمر؟» ثمّ تقف لحظة لكي تنتابك الحيرة من حديد «لكن ماذا عسى أصنع والأبواب مقفلة في وجهي؟ الوزارات والشّركات وحتّى وكالات الاستثمار ترفضني
ـ «المعذرة يا سيدي اسمك في القائمة».

اسمك في القائمة! تظلّ كللّ يوم تعبُر الزحام الى المركز. أصبحوا الآن من معارفك، في المعبر يبتسمون اليك مطمئنون هم الآن. تقف أمام الرئيس، تضع امضاء على الورقة وتخرج. ولا خوف منك، نزعوا انيابك، كمّموا فمك ماذا أنت صانع؟

تحت شجرة مظلّلة أوقف السّائق سيّارته. فتح الباب بعد مسير ساعات ثلاث. أمرك الحارس بالخروج التفت اليك هازئا:
ـ لا نخشى منك، لن تفلت، أمثالك لا يفعلونها ومع ذلك، ان فعلت..

لم يتم العبارة، وحدك تفهم ما يقصد. لا يهمّ، أسرع السّائق الى الحنفيّة الملقاة للسّابلة في هذا المكان من الخلاء أحنى رأسه تحت الماء ثمّ شرب كالحمار بعد مسير يوم ثمّ جاء واستلقى على الأرض وفي لحظة أدخل أنفه في التراب وظلّ يشخر.

أخرج الحارس علة سجائره، وضع واحدة بين نابيه وألقى اليك بأخرى أخذتها بنهم، أنت الآن في حاجة اليها.

رائحة الدخان وحدها تثير فيك كوامن النفس. عندما دخّنت سيقارتك الأولى كنت على ظهر البغل. ذاك البغل الذي كان يربض في الزريبة في صراع دائم مع أبيك وكان أبوك يلعنه كلّ يوم وليلة.
ـ يا ولدي، لا يفيد اللجام، ليهدأ البغل يجب أن يتعب
ـ أنا أتعبه

ضحك أبوك متهكّما. تجاوزت العاشرة بقليل وقتئذ، ابتلعت ريقك، صفعة المعلّم وسخريّة الوالد، هذا شيء كثير. وصرت بعد العصر عندما تترك المدرسة تأتي الى البغل في الشماطي فتفكّ رباطه وتقفز الى ظهره. سقطت في اليوم الأول وكدت تفقد رأسك، جرحت في اليوم الثاني وفي اليوم الثالث عدت الى الزريبة راكبا ظهره. شاهدك أبوك فلم يقل شيئا. من الغد وجدت عربة قديمة أمام البيت وأباك متكئا عليها. نظر اليك في تعب وقال :

ـ أنت والعربة تتعبان البغل.

وفهمت كلّ شيء. أبوك في حاجة اليك، وحده لم يعد ينفع. لم يقل لك «اترك المدرسة» أمّك تريدك أن تتعلّم. تريدك موظّفا كبيرا كخالك وأبوك يريدك على البغل. وعندما رآك لا تتكلّم وضع يده على كتفك.

ـ أنت حرّ، المدرسة أو العربة وبغلها.

وظللت تذهب الى المدرسة وبعد العصر تركب العربة وتنتصب أمام سوق المدينة. كان ربحك في البداية قليلا لكنّك مع الأيّام أصبحت تصطاد حرفاءك، ترى الحريف فتصمد أمامه، تفتكّ ما عنده وتضعه على العربة ولا تساوم وعندما توصل البضاعة :

ـ ديناران

ـ لا دينار واحد.

ـ قلت ديناران، هذا ثمن تعبي.

وعندما يصرّ الحريف تأخذه من تلابيبه

ـ إما أن تدفع أو أقتلك

فيدفع وعندئذ تعود الى البيت فتجد أباك قد عاد من الحقل.

ـ دينار لك ودينار لي والبغل

وعندما كبرت كان رفاقك في المعهد يتهامسون، كنت تعلم انّهم يقولون عنك أشياء كثيرة لكن أحدا لم يتجاسر يوما ويقولها لك «كرارطي»، لقد علّمك البغل أن تكون صلبا مع نفسك ومع الناس. فوق البغل دخّنت سيقارتك الأولى، رآك أبوك تدخّن، لم يقل شيئا ... تحدّدت العلاقة بينكما وذات يوم أوقفك أستاذ التاريخ على المصطبة وهو يفرك يديه كأنّه حصل على صيد ثمين، تنحنح ثمّ قال :

ـ يا سي حمدي، هات حكاية نبليون

وقفت صامتا. استرجعت له درسه، عبس كأنّ الأمر لم يرضه :

ـ لكن رأيتك البارحة في فلم مجنون ليلى ؟

ـ أجل

ـ رأيتك تدخّن أيضا ؟

ـ أجل

ـ رأيت قيسا وليلى يتمرّغان على التراب.

ولم تجبه، رفع كفّه ليصفعك، في لحظة دفاع عن النفس شددت ذراعه في عنف فصاح وزمجر وانتهت القضيّة بطردك لمدّة أسبوع ومنذئذ أصبح التلاميذ والأساتذة يعرفون قصّتك وفي ذلك اليوم تحوّل عنفك الى البيت. كان أبوك في انتظارك وكنت منهكا، لقد طفت طويلا بالبغل وتعبت كثيرا في انتشال حرفائك، أدخلت يدك الى جيبك وأخرجت ما فيه.

ـ هذا لك وهذا للبغل.

انغلقت كفّه على القطعتين ثمّ مدّ كفّه الأخرى

ـ أرني جيبك حتّى أرى

لقد سمع بقصّتك في المعهد وهو الآن يريد إثارتك.

ـ ما بقي هو لي

أخذك من عنقك ومدّ يده ليصفعك، في تلك اللحظة عاودك عنفك جاءك من أغوارك البعيدة، يحمل تعب السنين الطويلة فمسكته من ساعديه وقلّصت عضلات وجهك ونظرت في عينيه، عندئذ أحسست بساعديه ينهاران وفجأة استيقظ حبّك في ألم فأعطيته خدّك «أصفع، ها أنا لك، أصفع»

«أصفع، ها أنا لك، أصفع»

لم يصفعك. ظللت أسبوعا كاملا تعاني ازمتك، تنام مع البغل في الزريبة وذات ليلة جاءك، أخذك من ذراعك قائلا :

ـ يا ولدي، لقد كبرت الآن، افعل بنفسك ما تشاء

ارتميت على صدره. وبكيت، ذقت على صدره ملح الأرض، تراب الأرض عالق بصدره، بكيت، شيء من القهر اختفى ومنذئذ أصبح الوالد صديقا، يمدّ لك السيقارة بعد العشاء فتنهره أمّك فيصيح في وجهها :

ـ اتركي هذه الاسطوانة يا مرا، كلّ الناس موظّفون.

تدخّن الآن. الطريق الى المعتقل مازالت طويلة، حارسك يتكىء بمرفقيه على الترّاب والسائق مازال ينفث انفه إبتسم الحارس وسألت :

ـ أراض بهذا الوضع الآن ؟

لم تكن تنتظر هذا السؤال، وضعك الآن يعرفه. الى المعتقل أنت ذاهب. وبعد المعتقل لا شيء عنه، ستفكّر فيه في أوانه قد تجري الرّياح بما لا تشتهي السفن ومع ذلك يجب أن تصمد يتمزّق اشراع وتتحطّم الألواح لكنّك يجب أن ترمي الياطر في أمان.

ـ وهل رضائي أو عدمه يغيّر شيئا ؟

فكّر الحارس ثمّ قال :

ـ وغد .. أنت وغد ... دائما يا حمدي رجب

ما باليد حيلة وأنت الآن في مثل هذا الوضع عليك أن تقبل كل شيء، أن تشتم، أن تهان، لا يملك الانسان نفسه دائما. لكنّ بغلك كان أحيانا يحرن، كان أحيانا عندما تزجّ به بين العربات في منعرج من منعرجات الطريق يحرن، وعبثا تنزل على ظهره نارك وتحرقه بلهيب سياطك. كان يحلو له أن يتصرّف بحريّة، أن يضع أنفه تحت ذيل أتان، أن يشمّ بعرة على الطريق وأن يجعل سوّاق السيارات يصيحون ويلعنون. بغلك أحيانا لا يفهم الظروف ولا يفرّق بين عظيم القدر في سيّارته الخاصّة وبين راكب الحمار. أمّا أنت فالظرف يتحكّم فيك. عندما وقفت أمام القاضي رفعت صوتك : "يا سادتي القضاة، ما أنا بلصّ من لصوص الدولة، يا سادتي القضاة ما أنا بمهرّب العملة الصّعبة فأنا لا أملك إلاّ الغربة والقهر. الغربة والقهر في الصّدر وماذا تريدون منّي ؟»

نظر اليك القاضي باستهزاء، كنت ترى نظرته من خلال زجاج النظّارة البنيّة، نظرته السّاخرة والشامتة ووجّه اليك الضّربة القاضية :

ـ أنت قاتل اليهودي هكذا اعترفت

سكتّ، لم تستطع أن تردّ. ماذا تقول له؟ أسبوع تحت السياط لعبة الكهرباء والشّنق وماذا تقول أيضا ؟

ـ يا حضرة القاضي كنت مريضا

ـ ولماذا ذهبت اليه؟

ـ كنت أزور صديقا

ـ كذب، صديق يهوديّ، كذب. أنت القاتل.

ـ ماذا تقول ا ؟ كيف تردّ على التهمة «يا سيّدي القاضي البرد في الصّدر فكيف القتل؟ ثلاثون عاما مرّت كلا شيء، الدّنيا تسير على طريقتها وعمري يسير على طريقته. بحثت عن التصالح مع هذا العالم، لكنّ العالم يرفض التصالح معي. بحثت عن التسامح لكن شيئا ما في هذا العالم يعاديني يرفضني ويريد محقي .»

رفع القاضي نظّارته عن عينيه، مسكها بأطراف أصابعه ثمّ مدّ يده أمامه على الطاولة وأشار اريك :

ـ يا سادتي هذا الرجل دليل على فساد خطّتنا. أخرجناه من الغابة، أدخلناه الى المدرسة، فتحنا له المعهد الثانوي. أخذناه من العربة والبغل. فتحنا له أبواب الجامعة، ثمّ في النهاية أنظروا ماذا فعل بنا. يا سادتي ؟ انه البيضة الفاسدة ويجب تطهير العشّ.

واسترسل القاضي. كان يريد هذه المرّة أن يفوز بجلدك. أن يحملك الى المشنقة. أن يدقّ عنقك بدون رحمة ولا شفقة

ـ يا سادتي هذا الرّجل ولد من أولاد الفلاّحين. كنّا نريد أن يكون في خدمة الدّولة. أموال الشّعب صرفناها في خدمته وتأهيله. ثمّ انظروا كيف يقابل احسان هذا الشّعب لأبنائه. ؟

أدخلناه السّجن في المرّة الأولى وأعطيناه الوقت ليعود الى رشده. ثمّ أخرجناه ومنحناه وظيفة عالية في الدّولة ولكن انظروا ماذا فعل ؟ مجرم من طراز خطير، عديم الانسانية، جلف من أجلاف البدو.

وعاد بك الى أغوار النفس البعيدة.

الفاصلة الثانية

مدّ الشيخ يده إلى كأس الشاي. ثمّ مسك يد العجوز. اليد الصلبة مازال فيها شيء من الدّفء

ـ يا مرا هل تذكرين الجبل ؟

ضحكت العجوز. منذ جاء خبر الولد لم تضحك. لكنّها ضحكت. ها انّ الشيخ بدأ يتكلّم.

ـ أيّ جبل يا شيخ ؟

ـ قولي هل تذكرين الجبل والحرب وعلوان بوزيد ؟

ضحكت العجوز من جديد. يدها في يد الشيخ. تلك النّظرة القديمة لم يبق منها الاّ ظلّها. تدارك الشيخ نفسه. ترشّف كأس الشاي. طعم الشاي نفسه ذكّره بالجبل في هذه اللحظة نسب الولد. الجبل ينسي الولد.

«أتعلم من كان في الجبل في تلك الأيام ؟ الثوّار كانوا في الجبل على الجبل نار وتحت الجبل نار وأنا مع أمّك على البغل كان البغل بين النّارين يتّبع الممرّ الملتوي بين الصخور في عناء ومن المغارة التي مررنا أمامها خرج لنا رجل كان يحمل البندقيّة ويلبس المظلّة وكانت المفاجأة.

علوان بوزيد بنفسه. صاح فيّ :
ـ ماذا تفعل يا رجل؟

أدخلنا المغارة وروينا له حكايتنا. وضع بندقيّته وجلس معنا. حدّثنا عن الجبل وعن حياة الرّجال في الجبل. ارتحنا كثيرا. أكلنا وشربنا. المغارة حصن. بنادق الصّيد وبعض البنادق الحربية وصناديق المونة. التفت اليّ علوان بوزيد :
ـ أنت وامرأتك في أمان ما دمت حيّا

ولم يزد شيئا آخر. كانت طلقات النّار تأتي من هنا وهناك. الثوّار على الجبل والفرنسيس يحيطون به وكانت أمّك صامتة. كنت أعلم ما يراود عقلها. هي الآن بين المطرقة والسّندان ... بين النار والنار. أشفقت عليها يا ولدي. قلت لها :
ـ يا وليّة أنت الآن في أمان بيننا الله ورسوله

اشتدّ الأزيز. النار تصبّ من فوق. المغارة تكاد تتحطّم والجبل يتحرّك وفجأة وقفت أمّك :
ـ يا رجل، الرّجال يموتون ونحن كالكلاب في هذه المغارة. جسدي هذا حرام عليك ان بقيت على هذه الحالة.

أخذت البندقيّة وخرجت. مع ضوء النّهار اشتدّ القتال. كان علوان بوزيد ورفاقه وراء صخرة يقتنصون العدوّ. أذهله الأمر عندما رأى أمّك أمّا أنا فقد كنت أدرك أنّها تريد أن تتطهّر بالنّار.
ـ يا جليلة ماذا تفعلين؟
ـ خذها يا علوان، أرني كيف يستعمل؟

حاول علوان أن يمنعها ولكنّه في النهاية أذعن. نادى أحد رجاله :
ـ خذهما الى ظهر الجبل وعلّمها.

ظللنا يومين كاملين نتعلّم، كانت الحياة مع سكان الجبل عاديّة، السلاح ورائحة

البارود وكؤوس الشاي. غريب يا ولد سكّان الجبل والثوّار شيء واحد يد تلقّي بالنّار على العدوّ ويد تطبخ الشاي وتعدّ الغذاء للرّجال. في يومين تدرّبنا تركت أمّك مع الرّجال، يد تحمل البندقيّة ويد تكمّد الجراح وركبت البغل أنقل السلاح من موقع في الجبل. كانت أيّام يا ولد. سنة كاملة وأنا وأمّك على الجبل أخبار جدّك كانت تصلني.

الفضيحة وصلت المدينة وانتشرت. جليلة بنت صاحب الحوازات والديار والحوانيت هربت، لزم جدّك الفراش. أرسل أزلامه الى فريقا. قال : لا بدّ أن يفرّ بها الى فريقا لكنّي كنت في الجبل، حياة الجبل أنستني الحقل والمسحاة بغلي وجليلة والجبل.

سنة كاملة وجاء الأمر بترك السلاح، البلاد عادت الينا. الجندرمة انسحبوا معركة الجبل علّمتني معنى العراك. وكان علوان بوزيد معلّمنا.

ـ يا علوان لماذا لا تنزل معنا ؟

ـ عودوا أنتم وأنا سأبقى في الجبل

ظلّ أسبوعا لا يتكلّم، ثمّ عاد إلينا

ـ ارحلوا أنتم واتركوني

لم نفهم قصده. خبر رحيل الجندرمة عن الطرقات المؤدية الى الجبل أفرحنا. ها نحن يا ولدي نصبح مثل عباد الله أركبت أمّك ورائي على البغل وعدنا. جدّك كان في حالة اغماء. رحيل الجندرمة أذهله. سين وجيم والبقيّة تأتي .

جاءني خالك،

ـ يا رجل، أنت الآن صهري، دعنا من الفضائح. وجليلة هي على كلّ أختي، فاسترنا يسترك الله

كان خالك مرتبكا، الضياع والدور والحوانيت والعقارات وسين وجيم. لم يتحمّل جدّك الصدمة.

أمّك أيضا لم تتحمّل الصدمة. لم تتصوّر كيف ينهار جدّك في يوم وليلة.

ظلّ الشيخ نائما، أخذت جليلة الشبّابة ووضعتها في الدرج الملتصق بالحائط. عرق الشيخ وهو ينفخ في الشبّابة ذكّرها بأيامها القديمة ولكنّ الولد الآن بعيد والخبر ليس سارّا. فكّرت هي أيضا في الولد، ارتبكت للصورة البشعة. أيظلّ الولد غائبا ويحدث ما يحدث، الولد، الولد... !

أيّة مصيبة ابتلتك يا ولدي ؟ يا ليتك ما ذهبت وما تعلّمت. يا ليتك اكتفيت بالشّهادة وتزوّجت حبيبة أو بنت التّاجر وأنجبت ولدا أو بنتا، واكتفيت، قطعة الأرض التي ورثتها من جدّك والحانوت ونصف الدار القديمة تغنيك عن التّعب والمشقّة

أنا أخطأت يا ولدي، دفعتك الى التّهلكة بنفسي أردتك كخالك، لكن أنت الآن أين وخالك أين ؟

خالك يا ولدي الآن صاحب القصور والدّكاكين والحوازات، جدّك مات مقهورا وقد سلبوا منه كلّ شيء، وخالك أعاد كلّ شيء. خالك أصبح الآن دولة يا ولدي، حبيبة لم تعد تعرفها. أصبحت بنت سلاطين، زوجها هو أيضا سلطان من السلاطين. لكنّها لا تزال تحنّ إليك. جاءتني منذ يومين تسأل عن أبيك، ارتبكت لمّا رأته في تلك الحالة. خالك لم يزرنا وهي جاءت، قالت :

ـ يا عمّتي نأخذه الى المستشفى أو الى بيتي

لست أدري من أيّة طينة هي يا ولدي. لقد أحببتها منذ كانت طفلة وتمنيت أن تكون لك، لكن الحياة ظروف يا ولدي. رفضت. أبوك متعب يا ولدي ولا فائدة في اهانته.

ـ أشكرك يا بنتي، لكنّ الشيخ متعب.

فهمتني ولكنّها أصرّت. ذهبت وجاءت بالطبيب، أخرج الطبيب دواليبه، قلّب

والدك يمينا وشمالا. استمع الى قلبه أخرج لسانه، ثمّ قال :

ـ لا خوف عليه، لماذا المستشفى ؟

لقد فهمته يا ولدي، أبوك أيضا فهم. الأعمار بيد الله لكنّ الأيام معدودة، أوصى له بالدواء، حبيبة أصرّت على شرائه بنفسها. ألححت عليها. حثالة أبيك كافية لكنّها أصرّت وعندما خرجت سألتها عنك، انّها تعرف عنك كلّ شيء. هنا في المدينة لا شيء يخفى، أشياؤك كلّها تعرفها شردت بنظرتها بعيدا، هي أيضا تتألّم يا ولدي. انتبهت إليّ وقالت :

ـ أدعي له بالسلامة يا عمّتي

كانت تتألّم. قبل زفافها تألّمت. جاءتني الى البيت وارتمت على صدري وبكت، سامح الله خالك يا ولدي لقد أكرهها على الزواج. لقد أحبّتك أنت ولم تحبّ غيرك ولقد انتظرتك طويلا لكنّ خالك أكرهها.

ـ ساعديني يا عمّتي، افعلي شيئا

ماذا كنت سأفعل لها ؟ أنا هربت، تعرف القصّة يا ولدي هربت مع أبيك عندما أردته لكنّ هي أين ستجدك؟ كنت أعلم أنّك في واد وهي في واد. أنا أيضا كان جدّك يريد أن يبيعني للعمدة .

كان العمدة يملك معه نصف البلد ويتحكم في رقاب النّاس أرسل اليّ خالك :

ـ العمدة يريدك ؟

ـ ماذا أصنع به ؟

ـ تكونين له زوجة

كان للعمدة زوجتان ويريدني ثالثة.

ـ العمدة متزوّج

ـ وماذا عليه، تكونين زوجته الصّغرى

كان خالك مثل جدّك، لقد استطاع جدّك أن يصنعه كما يريد، أرسله للكتّاب وحفظ مثله القرآن ثمّ دعاه الى السّفر الى الجامع والله أعلم ماذا فعل لكنّه في النّهاية أصبح موظّفا في الدّولة.

رفضت يا ولدي، فجاءني جدّك بعصاه، سبّ ولعن ثمّ أغلق عليّ الباب. ظللت ثلاثة أيام بلا أكل وفي اليوم الرّابع أخلى سبيلى

ـ بعد شهر تتزوّجين العمدة يا بنت.

ظلت شهرا كاملا أتعذّب يا ولدي. لم أقبل أن يغتصبني رجل، جدّك كان يريد أن يبيعني من أجل الحقول التي يساعده العمدة على اغتصابها.

كان الرّجلان سيّدي البلد، هما والقايد والجندرمة. فكرت في الموت لكن الحدث فضيحة ولا يغني شيئا، فكرت في الهرب لكنّ الهرب الى أين. وذات يوم رأيت أباك ...

ـ دعني يا ولدي، أنا أين وأنت أين ؟

ظلّت العجوز تروح وتجيء في ساحة الحوش وضعت يدها على يدها : «ماذا أقول لك يا ولدي ؟ أبوك ما ترك لك شيئا. لقد عاش عمرا طو بلا ولكنّه ما ترك شيئا. جدّك أيضا لم يترك لي الاّ القليل الذي لا ينفع. خالك استردّ أملاك أبيه وأصبح المالك الشرعي. جاءني يا ولدي ذات ليلة بعد أن أصبح موظّفا كبيرا في الدولة .

ـ افرحي لي يا جليلة، أملاك أبيك كلّها رجعت.

ـ كيف رجعت يا أخي؟ أدفعت الضرائب القديمة ؟

ـ كلّها بعون الله يا جليلة. الدولة لا يمكن أن تكون فلاّحا أنا فلاّح ابن فلاّح فلا وريث شرعي لهذه الأرض.

لست أدري يل ولدي كيف عاد خالك الى الأرض. إنّه عفريت أي والله

عفريت. تمنيت أن ورثت ولو ربع عفرتته. لو كنت نصف عفريت مثله لما دخلت السّجن. خالك يملك نصف البلد ولم يدخل السجن. كان جدّك يجلس على الزربية ويمدّ رجليه أمامه ويسند ظهره الى الحائط ويقول وهو ينظر إليه :

ـ يا جليلة أخوك هذا عفريت وسيكون بعون الله عفريتا

كنّا نضحك لأنّ جدّك ررغم كلّ شيء كان يحبّ المداعبة ومع ذلك فإنّ النبوءة تحقّقت. عندما خرجت فرنسا وفي لحظة السّين والجيم نزع جلده ولم يرحم جدّك الذي كان يلفظ أنفاسه. جاءني وسوّى المشكلة :

ـ يا جليلة أنت أختي أبونا خفّف الله عليه كان على خطإ أنا أخوك يا جليلة ولا أريد فضائح. زوجك صهري أنا أيضا فلاّح ابن فلاّح والعين لا تعلو على الحاجب اطوي هذه الصفحة وتعالي أبوك ينهي أيّامه.

وأخذني الى البيت. كان جدّك يلفظ أنفاسه. جدّك لم يتحمّل المصيبة، نظر إليّ ولم يقل شيئا. مات جدّك لقد بكيت عليه كثيرا. صحيح خرجت على طاعته لكنّه أبي.

ظلّ خالك ينتظر اللّحظة الحاسمة. فعندما مات جدّك عادت أثمن أملاكه الى الدولة ولم يغضب خالك بل ظلّ يحضر الاجتماعات وظلّ يصفّق. ظلّ يحضر الاجتماعات ويصفّق وجاءت اللحظة الحاسمة جاءنا الى البيت. كان في تلك الليلة جذلا. قدّمنا له الشاي تحدّث عن مشروع البقر. كان أبوك ينصت ثمّ سألنا عن علوان بوزيد

ـ لا نعرف شيئا عن علوان. إنه يعيش في الجبل

دارى غضبه بابتسامة ذابلة ثمّ عاد الى الموضوع :

ـ لا تنكري يا جليلة، أعلم أنه يزوركم.

كان علوان بوزيد يزورن كان ينزل أحيانا من الجبل في منتصف الليل ويدخل

بيتنا يشرب كأس شاي ويسأل عن زوجته وأولاده ويحدّثنا عن الجبل.
ـ ولو. نحن لا نعرف عنه شيئا

خرج خالك في تلك الليلة غاضبا. وبعد أسبوع علمنا أن علوان بوزيد وقع في الفخّ. خالك أوقع به ومنذئذ أصبح رجلا عظيم الشأن ونحن لم ندرك الحقيقة الاّ بعد زمن عندما خرج علوان من السجن.

ذهبنا الى علوان بوزيد نسلّم. كان ردّه باردا قلنا علوان بوزيد بو أحوال، هكذا عرفناه، كان تارة يتحدّث الى حدّ الهذيان وتارة يصمت، ظلّ علوان بوزيد باردا لا يريد أن يحدّثنا حتّى جاءنا ذات ليلة :
ـ يا جليلة أخوك باعني. غسل جلده بي.

لم أصدّق يا ولدي. لقد عشنا مع علوان بوزيد عاما كاملا. لقد آخى بيننا دم الفرنسيس. نسي زوجته وأولاده وصعد الى الجبل مع رفاقه من أجل شبر الأرض الذّي نملكه.

كان يقول لنا :
ـ يا رجال، كلّ شيء يهون من أجل هذه الأرض. تحرم عليّ زوجتي ويحرم أولادي ان نزلت من الجبل قبل رحيل الفرنسيس.

كنا نعلم قصّته في بلاد الغربة، أبوك رواها لي. وكان أبوك يحاذيني وهو يراه يطلق النار ويزمجر.
ـ يا جليلة، علوان يريد أن يثأر لنا ولنفسه
ـ لا تقل هذا يا راجل. لقد نسي الحكاية.

ولكنّه كان يلحّ أن علوان بوزيد لم ينس، أبوك أيضا أحبّ السبنيورية ومن أجل ذلك أحببته يا ولدي. رجل يغامر من أجل امرأة هو الرّجل يا ولدي لعلّه أراد أن يثأر لها منّي هذا لا يهمّ أنت أيضا أحببت، لقد أدركت ذلك من كلّ حركة تحدثها في،

البيت. المرأة لا يخفى عليها شيء وأنا أمّك أثر أسنانك لا يزال مطبوعا على حلمتيّ. نظرتك، شرودك، عزلتك أنبأتني أنّك عاشق. بنت التاجر دمّرتك يا ولدي يا ليتك فطنت إلى حبيبة من قبل. لقد جاءتني الى البيت وبكت. ولكنّي مسحت دمعها وقلت لها :

ـ لا فائدة، ولدي وأعرفه، لا فائدة يا حبيبة، ولدي دمّرته بنت التّاجر، لقد اغتصبته منّي ومنك ولكنّها رمت به في أرض ليست بأرض.

لكن أنت الآن أين وحبيبة أين ؟

وروى لنا علوان بوزيد الحكاية :

ـ أحسست تلك الليلة أن الجبل لم يعد يحملني. رفاق السلاح كلّهم نزلوا وتركوني وحدي. قبلها بأيام جادلوني كثيرا.

ـ يا علوان. نحمل الآن السّلاح. في وجه من؟ في وجه اخواننا الذين كانوا معنا فوق الجبل الجبل.

ـ لا يا اخوني لم أقل هذا ؟

ـ الفرنسيون الآن رحلوا. لمن هذا السلاح إذن ؟

ـ لا، الفرنسيون لم يرحلوا.

ـ سيرحلون، ثمّ الجبل لم يعد يهمّهم.

ـ سيرحلون بجنودهم. لكن أشياء أخرى يجب أن نتّفق عليها لم يتركوني أتحدّث، قطعوا كلامي، لأوّل مرّة بقطع رجالي كلامي. صرخ أحدهم في وجهي :

ـ نحن مع الوطن يا علوان، ليست لنا مشاكل شخصية مع أحد ونزلوا وتركوني وحدي، قلت : «أبقى وحدي، أصطاد وحوش الجبل وأعيش» وفكرت في أولادي، لم أترك لهم شيئا. سيموتون لا محالة أو يسعون الى قارعة الطريق يتسوّلون : «أنا أقاتل وحوش الجبل وأقتلها وآكل من لحمها. المغارة تكفيني والبندقيّة لكنّ أبنائي؟»

في تلك الليلة فكّرت في المصالحة قلت لنفسي «يا راجل لا تحلم كثيرا. يكفي أن يخرج الفرنسيون الآن، وبعد ذلك كلّ شيء في أوانه»

في لحظة المصالحة مع نفسي أوقع بي أخوك، أستقبل رفاقي في البلد واشترى ضمائرهم. جاؤوا معه. الحضارة لا يعرفها أحد سواهم. كنت في النوم أحلم. لفرنسيون وراء البحر وسنابل القمح في الوطن وأغصان الزّيتون وأولادي يأكلون من خيرات الأرض التي حرثتها بيدي، وصاح بي أخوك:

ـ لقد وقعت يا علوان بوزيد

لم أحاول. مددت يديّ:

ـ أنا علوان بوزيد خذوني حيثما شئتم، أنا علوان بوزيد لست وحشيا ولا آكل لحوم البشر، خذوني يا رفاقي.

وأخذوني يا جليلة

وسكت علوان بوزيد

جاءني خالك بعد أيام، كان قلقا، وكان يريد أن يداري خجله

ـ يا جليلة لا تطمئني الى ما يقال عنّي، علوان بوزيد خانه عناده

ـ لكنّك بعته

ـ أنا لم أبع أحدا. الفرنسيس خرجوا. وجاء الأمر. ولو كنت أنت لفعلت ما فعلته

يا ولدي لم أستطع أن أردّ عليه. أنا التي أفهم خالك. خالك كان يريد صفحة جديدة في حياته تنكّر لأبيه لأبيه. كان يقول:

«أبوك يا جليلة، لم يكن يعرف كيف يمسك خيطا» لكن يا ولدي أنت الآن أين وخالك أين؟ لقد ضعت وأضعتني معك والله يا ولدي لم أعد أفهم شيئا، أأصدّقك أنت وأستريح من همّي أم أصدّق خالك. لكنّك أنت يا ولدي لست على حقّ،

مصيبتك ميراث، أبوك سيموت ولم يترك شيئا الاّ العناد. لكنّ عناده كان من أجل امرأة سبنيورية وأنت من أجل ماذا ؟

الوطن ؟ كلّكم تتحدّثون عن الوطن ولست أدري الوطن مع من ؟ علوان بوزيد يقول الوطن وخالك يقول الوطن وأنت تقول الوطن الوطن ! آه يا ولدي، أبوك الآن مريض والله يعلم كيف سينتهي وأنت وحيد، والله أعلم أنت أين ؟ أبوك أراه يبتعد عنّي يظلّ اليوم كلّه مطرقا، مفكرا، يسافر بعيدا. أعلم أنّه لم ينس، رغم رحيل العمر لم ينس السبنيورية وراءه دائما ماتت مذبوحة ولكنّها لم تمت عنده. كلّما طلب الشبّابة أعلم أنها عادت اليه، تخرج من قبرها تلبس زينتها وتخرج اليه.

سرّي يا ولدي أبوح به إليك الآن. لكنّك لن تفهمي. أبوك جذبك اليه وبصورة ما جعلك تكرهني. لم يعجبني انجذابه الى السبنيوريّة. كان أحيانا عندما يعود من الحقل يغطس في الماء ثمّ يطلب العشاء وبعد ذلك يطلب الشبّابة. لم أكن في البداية على يقين، كان يصفّر وكان اللحن الذي يخرج يرهقني أنت أيضا كنت تجلس تحت قدميه عند الصّخرة وكنت أراك مأخوذا بألحانه. لكنّني فيما بعد فهمت. لقد كان أبوك يتألّم ولقد صبرت كثيرا وفي النهاية لم أعد أحتمل :

ـ يا رجل هات الشبّابة أحطّمها.

ـ ماذا أصابك يا امرأة ؟

ـ أنت مع الأحياء أو مع الأموات ؟

صمت، نظر بعيدا ثمّ وضع الشبّابة جانبا :

ـ اسمعي يا امرأة ما بيننا حرام ان عدت الى هذا الموضوع وَلكنّني يا ولدي لم أعد اليه. ظللت كلّما رأيته يمدّ يده الى الشبّابة أنسحب وصورة السبنيورية تملأ عقلي. أحاول أن أتخيّلها ألف صورة ترسم أمامي لامرأة واحدة وعندما أهرب منها أذكرك أنت، عندما كبرت بدأت أحسّ بالحيرة تنتابك لم تعد صغيري، الجالس على فخذيّ. كبرت ومعك كبرت حيرتك، كذب ما سمعت يا ولدي، كذب، كنت أراك

تتعذّب ولكنّك لا تريد أن تتكلّم، كنت صموتا تتعذّب بينك وبين نفسك، كيف تزوّجني أبوك؟ ولماذا؟ هربت معه والله يا ولدي تلك هي قصّتي.

والله يا ولدي لم أعرف أحدا قبل أبيك والفضائح التي حدّثوك عنها كذب، لا عشاق ولا مغامرات. كان جدّك ثريّا وكان يدعو الرّجال الى بيته وكانوا يتقرّبون اليه وكانوا يرغبون في مصاهرته لكنّي لم أكن منهم أعرف أحدا. يا ليتك ما عرفت المدارس وما عرفت الكتب، حيرتك طالت، بنت الأكابر كيف تتزوّج فلاّحا؟ أنا بنت أكابر يا ولدي؟ جدّك مات ولم يخلّف لنا شيئا. ذهب ولم يأخذ معه شيئا. ظلّ عمره كلّه يجمع ويجمع ويحتال وفي النّهاية مات فقيرا من فقراء الله الكثيرين. انّني يا ولدي أفهم حقدك، حفيد كبار الملاّكين في زمن مضى يركب الحمار والعربة ويذهب الى المدرسة الخيريّة وترفضه بنت التاجر. حقدك على جدّك وعلى خالك وعلى أناس كثيرين. الدّنيا أحوال يا ولدي. لست نبيّا ولا رسولا الأنبياء والرّسل لم يسوّوا الاعوجاج يا ولدي. فكيف لك أنت؟ الدنيا أحوال، أسع الى نصيبك منها، خالك وعدني أنّه سيجعل منك رجلا، نعم سيجعل منك رجلا في ادارة كبيرة أنت ابن الكتب والمدارس والتجربة السياسية الكبيرة ستصبح ذا شأن فلماذا العناد؟ لماذا العناد يا ولدي؟

قال خالك لي وقد هدأ غضبه عليك ذات يوم:

ـ ولدك تنطّع يا جليلة. لم تحسني التّربية، أنجبت ولدا واحدا ومع ذلك لم تحسني التّربية فماذا يفعل اذن من ينجب عشرة؟

لكنّي ذلك اليوم غضبت عليه، وكان يعرف حبّي لك، فأجبت باستهزاء.

ـ وماذا ينقص تربيته يا خويا؟

عندئذ تدارك الأمر بسرعة.

ـ لم تفهمي يا جليلة، لا تفهميني دائما أنا أقصد تنطّعه، عناده

ـ حبيبة وزوّجتها لغيره فماذا تريد؟

ـ يا جليلة، أنا ما جئتك لأخاصم. جئت لأعاتبك. الولد ذكيّ نار، أنا أعرفه وأنا مستعدّ لكي أتدخّل، معارفي في الحكومة كثيرة. أريد كلمة واحدة، منه. يعتذر وسأعرف كيف أسوّي الوضعية. هؤلاء أولادنا يا جليلة، فتحنا لهم المدارس والجامعة، ضحّينا من أجلهم. انّهم يتنطّعون الآن. نحن نفهمهم، شباب، وحماس، نحن أيضا عندما كنّا شبابا طلعنا الجبل وحملنا السّلاح ودخلنا السّجون، ولدك يا جليلة ذكيّ، يمكن أن يفيد الدّولة والدّولة تصفح دائما وتقبل أبناءها.

فكّرت ذاك اليوم كثيرا. خالك على حقّ. اعتذر يا ولدي ودعنا من المحاكم من أجل من دخلت السّجن؟ من أجلنا؟ ماذا فعلت يا ولدي. ها نحن فقراء ننتظرك، لترفع عنّا الكابوس. أبوك سيرحل وما ترك لي ولك شيئا. خالك تنازل عن نصيبه من بيت أبيه. فعلها هذه المرّة.

ـ يا جليلة، أنت أختي، نصيبي من بيت أبيك لك، أنا والحمد لله، استرجعت كلّ الأملاك. الدّولة لا تظلم. فكّري في نفسك قليلا يا جليلة، إبعثي للولد أو أحملك إليه إن شئت، اقنعيه، قولي له، دع هذه الكتب المستوردة ويكفي ما عندك من علم، خالك سيغنيك عن كلّ شيء. قولي له، سيكون لك ما تريد، موظّف كبير في الحكومة، أو في مصنع على ملك الخواصّ تصبح فيما بعد مديره وتملك أسهما فيه.

من أجل من تعبت يا ولدي؟ من أجل الفقراء؟ نحن أولى منهم ثمّ انظر اليهم، انّهم يعيشون وما سأل أحد عنك. زوجة الفحّام جارتنا سمعت بقصّتك، جاءتني تضرب يدها على فخذها وتصيح هائجة:

ـ لماذا فعل هذا يا جليلة يا أختي، لماذا يفعل في نفسه هذه البهذلة يا جليلة، ولدك ضدّ الحكومة، يا خراب بيتك يا جليلة.

صحت فيها وأخرجتها من البيت.

ـ حرام عليك بيتي إن عدت إلى هذا الكلام. ولدي ليس ضدّ الحكومة يا امرأة.

أخرجت عينيها في وجهها
ـ لكنّه في السجن يا جليلة. خيّب الله ظنّي يا جليلة، هل سرق لا قدّر الله ؟

صحت في وجهها وأخذتها من يدها خارج البيت
ـ فأل الله لا فألك

ماذا أقول لها يا ولدي ؟ من أجلك أنت دخل ولدي السجن من أجل زوجة الفحّام وحليمة العرجاء وعبد السلام الزبال .دخل ولدي السّجن. لا تعذّبني يا ولدي. أنا في خريف العمر والله وحده يعرف المقدور. لكن من يدري ؟ دعني أرك، أعش معك أنهِ معك بقيّة العمر ولا تعذّبني يا ولدي

يمرّ عبد السلام الزبال كلّ صباح أمام البيت، يقف أمام النافذة فيرفع صوته :
ـ كان الله في العون يا جليلة، كيف حال الولد ؟

حاولت أن أغلق أذنيّ، السؤال يعيده كلّ يوم وكلّ صباح وبنفس الشّكل
ـ إنه بخير والحمد لله.
ـ ألم يفكّروا في تسريحه بعد ؟
ـ العلم عند الله وعندهم.
ـ خاله في الحكومة ولا يعلم شيئا
ـ وماذا يفعل خاله يا عبد السلام
ـ إيه ؟
ـ قلت لك ماذا يفعل خاله يا عبد السلام الزبّال ؟
ـ يفعل الكثير، يبرّىء ذمّته وهل أخوك رجل قليل الشأن ؟

ولكنّه كالعادة يعود الى نفس السؤال عندما أتى ذلك اليوم قرّرت أن أباغته :
ـ بالله يا جليلة قولي لي ماذا فعل الولد ؟
ـ إيه ؟ ماذا فعل يا عبد السلام ؟

ـ أنا يا جليلة لا أقصد. لكن الناس سامحهم

ـ سامحهم الله وسامحك أنت معهم لكن ماذا يقولون ؟ يسرق ؟ يزني ؟

ـ يقولون إنه يخدم في السياسة

ـ وما لها السياسة يا عبد السلام ؟

ـ السياسة تدخل السّجن

ـ لكنّك أنت كلّ يوم تلعن وتشتم في الطريق العامّ فلماذا لم يدخلوك السّجن ؟

ـ اللّعن والشّتم سياسة يا جليلة ؟

ـ نعم يا سي عبد السلام، أنت عندما تلعن وتشتم كلّ صباح، ذلك يعني أنّك تخدم في السياسة

عندما واجهته ارتبك، حاول أن يداري خوفه

ـ اسمع يا عبد السلام. ولدي رجل، والسّجون خلقت للرّجال، ثمّ ولدي من أجلك أنت دخل السّجن.

عاوده الارتباك من جديد، تحرّكت شعيرات ذقنه وسألني

ـ كيف يا جليلة ؟

ـ أنت تلعن وتشتم وهو يقول لماذا أنت تلعن وتشتم

ازداد ارتباكه. وضع يده على عربته والتفت اليّ :

ـ يا جليلة أنا لا أريد منه شيئا، قولي لوالدك دعني وحالي أنا بخير والحمد لله. والبركة في أخيك الذي شغلني في البلديّة أخوك رجل يا جليلة بالله سلّمي عليه

ودفع عربته. ومنذ ذلك اليوم لم يعد يلتفت الى النافذة. ظلّ يقف أمام البيت، يحمل الكناسة ويمضي.

المقطع الثّالث

البغل والعربة وبنت التاجر وأبوك المنحي على فارسه وبنت الخال وأمّك التي تريدك موظّفا في الدولة كخالك بنت التّاجر جعلتك تبكي، عندما وقفت السيّارة أمام الباب الكبير بكيت. لم تستطع أن تصمد الى النّهاية، ذهبت بنت التّاجر لا كلمة ولا رسالة ولا ابتسامة على الطريق وهي الآن في الحديقة الكبيرة التي تحيط بالبيت الكبير. الخدم والسيّارة الكبيرة والسيّدة الكبيرة تأمر وتنهي وحمدي رجب أمام القاضي الذي يطالب بشنقه. ثمّ ماذا ؟ بنت الخال هي أيضا في بيت التاجر الكبير.

هذه تعذّبت بكت ثمّ لم يبق شيء، بغلك وحده كان يفهم همومك البغل يحدّثك. كان في صمته يحدّثك يقرأ انشغالك وقد وقف عن تحريك فكّيه ينظر اليك كان يريد أن يبكي، بغلك مثلك يعبّر عن نفسه بالصمت «يا بغل، يا حبيبي، النار التي تحرق ظهرك من البرد الذي في صدري» كان البغل ينظر اليك أيّام خصومتك مع أبيك وأنت في الزّريبة تجمع بعض الأخشاب ثمّ تشعل فيها النّار لتتدفّأ، كنت تلك الليالي ترتعش من البرد، الدراسة والعربة اتعبتاك. كان الزبائن قلائل ولم تكن الأرض سخيّة وكنت تعلم أن أمّك رغم كبريائها في حاجة إليك، تمدّ يدها إليك في انكسار. لم تكن تريد أن تراك على هذه العربة ولكنّها كانت ترفض أن تمدّ يدها الى خالك. ولكنّك وانت تراها تواري الدمعة في العين تنقذها من انكسارها وتعيد إليها كبريائها

ـ سأكون موظّفا يا أمّي لكن ليس كخالي بل أكثر

وكنت تراها تبتسم إليك ثمّ تأخذك إلى أحضانها كما كنت ابن سنتين أو ثلاثة «يا بغل، يا حبيبي، يا رفيقي على طريق الغربة والقهر. ها أنا الآن أمام القاضي قصّتي معك يعرفها، يتندّر بها، يستغلّها ليهيّء الناس لتقبل فكرة شنقي أو دقّ عنقي ولكنّي ما قتلت صديقي. مصيبة حدثت ولكنّي رغم أنني أجد نفسي أمام القاضي والتّهمة الآن بعيدة عن السياسة.

لا أحد في العالم سيقف معي. مجرم أنا رغم أنني، ما هذا العالم المناوىء ! دخل قضاتك للتفاوض. القضيّة استعجالية ولا تأجيل.

ظللت تدخّن رغم إهانة الحارس، انطفأت سيقارتك فمدّ إليك أخرى كان يريد أن يبدو أمامك كريما، لكن ليطمئن يجب أن تسبل أذنيك كبغلك عندما كان يريد أن يفعلها

استيقظ السائق، هرع من جديد الى الحنفية ليبعد نومه وها أنت الآن في السيارة ورأسك يكاد ينفلق. الأفكار تتزاحم والطريق ما تزال بعيدة لقد وجدت نفسك ذات يوم تتساءل «متى أظلّ عالة على الرّفاق، لقد وفّروا لي كلّ شيء، المأكل والمسكن ومصروف الجيب ولكن متى سيتواصل هذا الأمر ؟» وكنت تفكّر دائما «لكن ماذا عساي أصنع والأبواب مقفلة.

إنهم الآن مطمئنون على سلامة الدولة وماذا يهمّهم بعد ذلك» بعد أن تضع امضاءك تظلّ تتسكّع في الطريق العامّة كلّ الأبواب مقفلة، تقف أمام المسؤول الاداري فتحسّ انه يتوجّس خيفة، لقد عرفت الصّحف وجهك أياما، كانت تنشر صورتك مع الرّفاق، حمدي توقفه الشرطة، حمدي رجب مورّط في تنظيم سياسي، حمدي رجب يدخل السجن، ولكنّ المسؤول يحاول أن يكون طيّبا «شهادتك مشجّعة ما الاسم يا سيّدي ؟» «حمدي رجب» وينظر المسؤول في عينيك طويلا ثمّ

يضع يده على ملفّ في رفّ مكتبه «المعذرة يا سيّدي اسمك في القائمة» اسمك محاصر في كلّ مكان كمهرّب الأفيون والسلاح. كنت دائما تحسّ وأنت تحتسي قهوتك المسائية في مقهى الحي أنّ وقفة التأمّل قد طالت. السّنة تكاد تنتهي وأنت تلوك الفراغ والندم وذات يوم وفي لحظة عزلة قرّرت «أنقذ نفسك يا حمدي رجب، الحياة تتعفّن أمامك، يجب دفع الحصار والاّ هلكت، الميناء وحده هو الحلّ، هناك لن تسأل عن هويّتك ولا عن تاريخك السياسيّ» في الصّباح الباكر رميت حاجتك على كتفك وقصدت الميناء الصّباح الرّبيعي لم يكن باردا ولكنّ السّير على القدمين من المدينة الى الميناء أمر يصعب بعد الانقطاع عن البغل ولكنّك قلت «يجب أن أبدأ التجربة من أوّلها، كلّهم هكذا يفعلون فلماذا أنا لا أفعل ؟» وفي الواقع كنت تفكّر في جيبك الذي لم يكن يحتوي على شيء كثير. بعض الدّنانير هي مساعدة من الرفاق ولكنّ المساعدة يجب أن تقف. هناك في السجن وخارجه رفاق آخرون في أشدّ الحاجة إليها» ومضيت في طريقك «ولدك يا أمّ ليس موظّفا كبيرا، ولدك يا أمّ ليس مثل خاله، أنظري إليه الآن. من العمل مطرود. لا مكتب ولا هاتف ولا سيارة، لا يعرفه لا الكبير ولا الصغير. كخلق الله المتعبين يسير ويلهث في سيره. المئزر على الكتفين والحذاء الثقيل في القدمين والسيقارو الحلّوزي بين الشفتين انظري اليه في هذه المدينة الكبيرة يسير لا زوجة ولا أبناء ولكنّك يا أم تقولين بينك وبين نفسك، المهمّ أنّه خرج من السّجن وما دام حيّا سيصنع حياته بنفسه، وأبوك يساندك هذه المرّة أيضا «لا تخافي يا امرأة، انه رجل لا يخشى عليه ومادام حيّا سيصنع حياته بنفسه» وتواصل طريقك. لا تفكّر كثيرا. الطريق أمامك فسر فيها ولا تعد الى الوراء. وأمام باب الميناء وقفت، كان الباب الحديديّ واقفا وعبر الأسلاك الحديدية تبدو البواخر رابضة على حافة الميناء وكان النّسيم البحري يسري بدون أن يؤذّي. الحياة في هذا المكان بين الماء والأرض وبين البرّ والبحر ليست سهلة. في هذا المكان ترفع السواعد المفتولة الأثقال. في هذا المكان اللّباس الأزرق في لون البحر. بعض الآلات الميكانيكية وعلى الكيّ وداخل البواخر التجارية شكائر القمح والشعير والاسمنت

والبضاعة الملفوفة والأعمدة الحديدية في هذا المكان تموت الكتب والمحاضرات وثقافة الكتب لا مكان هنا الاّ للسواعد المفتولة وأنت يا حمدي رجب بعيدا عن كتبك وأوراقك ونظريّاتك ومناشيرك يجب أن يكون معك ساعدك الذي فتله البغل والعربة. ساعدك وحده هو الذّي سيمنحك معنى الحياة. إمّا أن تصمد للتّعب أو تموت، امّا أن تبقى أو لا تبقى والبقاء لا يعني أن تظلّ تكنس الشوارع ويتحدّث الرفاق عن بطولاتك في قاعة مقهى افريقيا. لقد قلت السجن. هذا حسن ولكن ماذا بعد السّجن؟ كثيرون دخلوا السّجن ثمّ ماذا بعد ذلك؟ ستتحدّث عن الدّيمقراطية والحرية والعدالة والاشتراكية. كلّهم يتحدّثون عن الديمقراطية والحرية والاشتراكية وماذا بعد ذلك؟ انك في حالة سراح مؤقّت. هم يمارسون من كلّ موقع، يقولون لك نحن نجرّب، قد نخطىء وقد نصيب ولكنّنا نمارس. الممارسة يا حمدي! تتحدّث بدورك عن الفقر والاستغلال ولكنّك تدرك انّك رغم فقرك لا تعيش فقرك، أبوك يتحدّث عن الاستغلال البقرة الرماديّة ماتت والبقرة الأخرى اغتصبها منه شريكه فهل تعي معنى هذا القول حقّا؟ واخرج من هذه الحلقة الى حلقة أوسع وانظر الى الفلاّحين في مدينتك يظلّون. الفصل وراء الفصل، وتشرق الشّمس وتغرب وفي المواسم يملؤون أعدالهم ويركبون أحمرتهم ويتوجّهون الى السوق فإذا السلعة بائرة. الكيلو بخمسين وما في أيديهم شيء هناك رجال أقوياء يكتسحون الأسواق. بضاعتهم بغير فصل والعنب في الليالي والبطّيخ في مارس والمائة دينار والانتاج الوطني مزدهر وتصنيع الفلاحة من مستلزمات العصر والواحة لا تملك الماء ولا يدخلها الجرّار والمحراث العصريّ ثمّ وسع هذه الحلقة قليلا وابحث عن السماسرة وكبار التجّار وأسيادهم وراء البحر وستدرك أن الحياة صعبة وأنّ الأمر ليس بنفس السّهولة.

من السّهل أن تدخل السّجن وتصبح بطلا في المقاهي وجلسات الرّفاق ولكن دخول السّجن سهل فيكفي أن تنسى بطاقة التعريف في البيت وأن تجلس في مقهى

وسط حيّك الشعبي الذّي فيه ولدت كما ولد جد جدّك ويأتيك شرطيّ ويكفي أن ترفع صوتك قليلا كأن تقول مثلا «هذا الحيّ حيّ، النّاس فيه يعرفونني وأعرفهم، يثقون بي وأثق بهم، يفتحون لي أبواب بيوتهم وأفتح لهم باب بيتي، يكفي ذلك فقط حتّى تدخل السّجن وقبل ذلك تلقي في سيّارة الشّرطة ويجوبون بك شوارع المدينة كأنّك قطعة خيش ألقي بها النّهر وفي السجن يمكن ان تمكث مدّة طويلة للتثبّت في هويّتك كأنّك قرصان من قراصنة البحر أو مهرّب الأفيون والسّلاح. وغدا عندما يطلق سراحك تصبح بطلا ليتحدّثون عنك في الاجتماعات العامة وتكتب عنك الصحافة الوطنية، وتتكرّر النادرة لغيرك ثمّ ماذا بعد ذلك ؟ تظلّ الحياة كما هي، الشّمس تظهر من مشرقها وفي المساء تنحدر الى الغرب ويظلّ أبوك يلعن السماسرة في السوق وتظلّ السّفن تفرغ حمولتها وتمتلىء جيوب وتفرغ جيوب والحمد لله على سلامة الدولة.

من أجل أن تنقذ نفسك وقفت أمام الباب، كل العمّال ينظرون ولمّا صاح الرّجل الذي وقف كالخشبة صائحا «أمبوش» وجدت نفسك تختنق بين السواعد المفتولة والاجساد الثقيلة، سلّمت أمرك للتيّار ولمّا وصلت في النّهاية الى المسؤول صاح في وجهك «انتهى الأمبوش، عودوا في المساء» لاحت الخيبة فعلا على وجهك.

أيمكن أن يكون العمل في المرفإ صعبا أيضا ؟ ها إن التجربة تثبت لك الأمر وقبل أن تفكّر طويلا أحسست بيد ترتج على كتفك وبدون مقدّمة بادرك بالحديث :

ـ يبدو إنك جديد على المهنة يا أخي

وتفرست في الوجه الذي ابتسم إليك وفي لحظة ارتميت على صدره، ما أحوج المرء الى الصديق، في المدينة النائية عشتما ثمّ افترقتما وهاهو أمامك الآن يعي مشكلتك.

ـ لا تغضب كثيرا. في المساء يفرّجها الله.

ـ هكذا دائما ؟

ـ إذا خاب الحظّ في الصباح ينتظرون المساء وإذا خابوا في المساء يعودون غدا، هذه هي الحياة هنا

ـ لكن لماذا كل هذا التعب ؟

ـ الخبزة يا أخي، ولكن هيّا معي الى المقهى.

وجدت نفسك تمشي مع الصديق، هذا الصديق لم يسمعك تخطب في الجامعة أو في الحلقاث السريّة، إنّه الآن رفيق الحياة الجديدة المقهى أمام الميناء مليئة بالروّاد وهي لا تشبه في شيء أي مقهى من مقاهي المدينة يكفي أن تنظر الى الوجوه لتعرف الروّاد، دعاك الرّفيق القديم الى المائدة ورفع صوته :

ـ زوز بيرة

فارتعدت أوصالك.

ـ بيره في الصباح

ـ وماذا عليه ؟ ألست متعوّدا عليها ؟

ولمّا لم يلق جوابا.

ـ في هذا المكان تتعوّد على كلّ شيء

ثمّ فتح كفّيه وأضاف.

ـ انظر يا أخي الى كفيّ، الشكارة حملها ثقيل ولكن تعوّدت هذا الميناء قلب مفتوح يأتيه المثقّف والجاهل عندما تشتدّ الدنيا هو وحده، الذي يبسط كفّه ويفتح قلبه فان خبت هذا الصّباح فلا تيأس فستجد شغلا وتتعب فلا أحد يقدر على المواصلة الدّائمة فإذا اشتغل الرّجل يوما لابدّ ان يرتاح يومين، الشكارة كالقحبة، إذا عاشرتها ليلة يجب أن تبتعد عنها ليلتين.

وتوقّف عن الحديث وقد تناول قارورة البيرة، ثمّ سألك ؟

ـ إيه ما هي الأخبار؟

ماذا تقول له ؟ أتروي له القصة من بدايتها، أتذكر له حياة السجن وتصف له الناس الذين من أجلهم دخلت السّجن ؟ أتقول له «من أجلك انت ومن أجل آلاف المستضعفين الذّين يحملون الفؤوس والمساحي ويرفعون الشكاير على ظهورهم ولكن ها إن صورتك ظهرت على الصّحف والمجلات وتحدث عنك الشرفاء وغير الشرفاء ولم يحدث شيء، انظر حولك الآن، السقاير الحلّوزي وقوارير البيرة والشمس لم تشرق والبدلة الزرقاء الملطّخة والحديثة الذي لا يعرف الدّجل والنفاق، أنظر اليهم كيف يتحدّثون الى بعضهم يسبّون ويلعنون ويضحكون.

لم يحرص كثيرا على الجواب بل عاد الى الميناء

ـ هذا الميناء زاخر بالحياة لا يمكن لك أن تعرف البشر على حقيقتهم كما يمكن لك أن تعرفهم في هذا الميناء. الوسطاء والسماسرة واللّصوص والقوّادون والشّرفاء أمثالي وأمثالك خذ واشرب ولا يهمّك شيء وسيفرّجها الله

ولمّا رآك عبوسا.

ـ اعلم الكثير عن حياتك وعن ظروفك (وضحك) اعلم انّك لست من لصوص الموظفين ، اللصّ لا يأتي الى الميناء فهو لا يطرد الا عندما يتهيّأ فعلا الى حياة جديدة كأن يصبح مقاولا أو تاجرا.

امتلأ المقهى بروّاده، فقد بدأ الصّباح يتقدّم شيئا فشيئا وبدأ عمّال الظهر يتجمّعون باكرا وقبل أن يستعدّوا للوقوف أمام الباب الحديدي لابدّ من دخول المقهى مددت في النهاية يدك الى القارورة وعندما رآك رفيقك ابتسم قائلا :

ـ أنظر أنا مثلا أمقت الأحمر، إنه يرهق، يزيد تعبا على تعب أمّا هذه، فلا، فهي تزيد في صحّة ونشاطا إنّها تفتح شهيّتي الى الأكل فأستطيع أن آكل كلّ شيء وعندما تكون الظّروف غير مواتية يمكن أن أكتفي بخبزة شايحة ثمّ مع هذا كلهه تجعلني

دائما في صحني بعيدا عن النرفزة، الشكارة على الظهر ولا ألعن الى أن ينتهي وقت العمل وعندما أعود الى البيت أنام كأنّني لا أستفيق أبدا.

تقدّم بكما النّهار، كان الجوع يؤلمك حقّا، إذن طول الانتظار يولّد الجوع ولكنّك اقتنعت الآن أيضا أن قارورة البيرة تزيد جوعك الحاحا. جاء الرّفيق بخبزة وعلبة سردينة وأخرى هريسة وقارورة زيت، ثمّ ابتسم اليك.

ـ غذاؤك اليوم على حسابي، أنت ضيفي.

ومددت يدك الى نصف الخبزة ولمّا اشتممت رائحة السردينة انشرح صدرك واقبلت تأكل بشراهة، هذه الأكلة ذكرتك بالسجن، كانت قفة الرّفاق تأتي يحملها الأصدقاء والمعارف وكان أشهى ما في القفّة الخبز وعلب السردينة والهريسة، وكان الرّفاق حولها فتنسى الأكل النّتن الذي يبعث على القرف، فقد كان للسجن رغم كلّ شيء لحظاته المفرحة.

بعد الأكل غاب رفيقك لحظة ثمّ عاد ووضع الجيتو في كفّك فانفتح باب الجنّة أمامك.

رميت شكارة القمح على ظهرك ولمّا أحسست بثقلها قلت تخاطب نفسك «يا حمدي رجب يجب أن تصمد، التجربة قاسية ومع ذلك يجب أن تصمد» كانت الشاحنات على الكيّ تنتظر دورها بعدما أرست الباخرة المحمّلة بالحبوب قبل انتصاف النّهار، منذ سنة فتحوا لك الباب وقالوا لك، خذ حريّتك ولكن ما أحسست طيلة هذه السّنة أنّك حرّ، في السجن لم تكن تفكر بطنك، في رغيف الخبز الذي يجب أن تأكله، في علبة السّقائر في القميص الذي ترتديه كان السّجن كلّ صباح ومساء يقدّم لك ما يملأ البطن وكانت قفاف تدخل. امّا الآن فالسّجن أقسى وأمرّ، حمدي رجب الذي تعلم يترك مدينة الفقر ويناضل من أجل الضعفاء والمغلوبين يبحث الآن عن رغيف الخبز في الميناء كان أبوك يقول وهو يلعن أمّك :

ـ يا مرا، رغيف الخبز يأكله حيث يشاء الله، لماذا التّعب ؟

لكن أمّك كانت تصرّ على السفر، كان السّفر حلمها الذي لا ينضب.

ـ يجب أن تسافر. هناك ستصبح رجلا واذا لم تعلمك الدولة أبيع ما أملك، التكليلة والخلال وثوبي أيضا.

ثمّ غابت أخبار الوالدين حبيبة انقطعت رسائلها منذ مدّة، لقد عرفوا قصّتك كاملة. حمدي رجب الذي سافر ليصبح رجلا يدخل السّجن ويقف في منتصف الطريق. طردت من الجامعة وأنت الآن تتسكّع في الشوارع تبحث عن شغل، تألم أبوك وبكت أمّك طويلا ولكن ماذا ينفع البكاء؟

ـ الولد لا يجد ما يقتات به؟

ـ وماذا نصنع، قلنا له عد الى مدينتك الصغيرة، انها تعرفك جيّدا ستّرفأ بك وستفتح لك ذراعيها، معارفنا كثيرون باستطاعتهم أن يجدوا لك شغلا أي شغل رغم البوليس ورغم السلطة، لكنّه يأبى، لا يرضى، أن يعيش معنا، أن يقاسمنا الخبزة، ماذا فعلتِ يا وليّة؟ لولاك لما ذهب، لوجدنا له شغلا أي شغل، المهمّ انّه يعيش، يعيش ككلّ الناس، لكنّك تريدينه كخاله، انظري ماذا صنع به كبرياؤك يا مرا؟ أرأيتِ الكلّ بيدك. فعلا لم تكن تفكّر في العودة الى المدينة الصغيرة، ظللت دائما تقول «مدينتي قحبة أموت ولا أعود إليها، إنني فيها أختنق، لكن مدينتك صنعت حبّك القديم. حبيبة وبنت التاجر، كيف تعذّبت بامرأتين؟ كيف أحببت امرأتين؟ أما بنت التاجر فقد أعطتك أعذب ما عندها وباعت نفسها للشيطان وأمّا حبيبة .. ؟ حبيبة النقيّة الطاهرة، حبيبة القديسة في زمن العهر، كيف جاءت من صلب رجل عاهر كخالك. تذكره الآن كيف يقف أمام امّك كالدّيك يتحدّث عن والده كأنّه ليس والدها «الوالد من كبار الملاّكين، أنظري كلّ هذه الأراضي كانت لنا، ورثها الوالد عن جدّ جدّه، كان يركب الجياد والعربات ويملك الأبقار والمواشي ويتصرّف في رقاب الرّعاة والبدو، ثمّ فجأة وجد نفسه عاريا لم يعد يملك من الجاه إلاّ الاسم ولو لم أتعلّم يا أختي وأدخل الزيتونة لكنت اليوم شحّاذا أو عاملا في الميناء» ويظلّ جالسا على الكرسي وأمامه أمّك وهي تحرّك يدها على الكانون ولمّا تمدُ له الكأس

«كانت أيّام يا أخت، كان الوالد رحمه الله يستقبلني استقبالا عظيما، كان يدعو كلّ وجوه البلد ويذبح الخرفان وكان الخدم يقبلون عليّ واحدا واحدا ويقبّلون عانتي» وتحرّك أمّك رأسها في استخفاف وهي تسمع الحكاية للمرّة الألف.

«هذه هي الدنيا يا أخي انّك الآن بخير» فيرتشف الكأس ويقول:
ـ «كان الوالد سيّد المدينة على الاطلاق وكان عندما يتجوّل في سوق المدينة وباكيته في يده يتلاعب بها بين أصابعه وأحد الخدم الى جانبه يمسك له مظلّته ويقف أمام الجزّار ويصيح آمرا اغلق بابك يا عبد الحميد وارسل بلحمك الى البيت ويفعل الجزّار ويرقص ذيله ويترك المشترين بدون لحم وكان الجندرمة عندما يفركسون المدينة شارعا شارعا وبيتا بيتا يقفون أمام بيتنا فيدخلهم الوالد ويطلب لهم قهوة الصباح والمساء ثمّ يخرجون، ثمّ جاء ذلك اليوم (ويتنهّد) جاء يوم الحساب من أين لك هذا؟ كيف اشتريت كلّ هذا؟ .. البلدية والمالية والآداءات وأفلس ناس وأثرى ناس وكنّا من المفلسين» ثمّ يعلو صوته وقد اعتراه غضب مفاجىء كأن أمّك لا تعرف الحكاية «كان إفلاسنا انتقاما، انتقاما لا غير، بيعت أرزاقنا بالمزاد العلني أبونا مات فجأة، لم يقو على المصيبة وأنا لولا العلم الذي في الرأس لكنت فلاّحا كزوجك يا أختي وها أنا الآن موظّف كبير يا أختي امّا ولدك هذا (ويشير إليك) هذا الوجه الصّامت إمّا أن يفرقع الدّنيا أو يفرقع نفسه.

حبيبة انقطعت رسائلها، أصبحت الطّفلة بنتا جميلة في لون الفجر، ظلّت هي أيضا تتألم، تراك تلهث وراء بنت التّاجر وتتألّم ثمّ ذات يوم قالت: «يجب أن أكشف له عن حبّي» واعترضت طريقك وأنت على العربة تلهب ظهر البغل بالسياط، أوقفت بغلك ونظرت في العينين الخضراوين المدمعتين ولكنّها لم تقل لك شيئا، إنّك الآن تفهم كل تلك الأشياء الصّغيرة التي كانت تفعلها من أجلك، نعم من أجلك، نعم من أجلك أنت، علبة السقاير التي ترسلها اليك ومجموعة الكتب وفي انهاية الخاتم الذي في اصبعها. حبيبة. لا تعلم انّك رميت شكارة القمح على

الظهر ولو علمت لأرسلت لك أشياء أخرى، عندما علمت أنّك تحبّ بنت التاجر بكت وعندما تزوّجت بنت التاجر بكت أيضا. حبيبة من طينة أخرى، هي امرأة ليست ككلّ الناس وستعلم يوما عليم اليقين أنّها امرأة ليست ككلّ النّساء. وجدت نفسك تتساءل «أستطيع أن أصمد الى النّهاية»؟ العمل يجعل منك الآن اداة تتشكّل حسب الظّروف، تجد الرّجل في الميناء نحيفا لكنّه يمسك بالشكارة في دقّة ويلقب بها على ظهره ويمرّ، لقد تعلّم كيف يعامل الشكارة وكيف يستلطفها فتحني له عنقها في لطف، فكّرت ليلتئذ طويلا «أكوام الكتب والنظريّات والمناشير جعلت منّي لا أقدر على الحركة لقد جعلت منّي رجلا لا يفهم الأمور ويعرف متى يكون اللفّ والدّوران ومتى يطمس الحقيقة ومتى يبرزها .... يجب أن أصمد وجاءت فترة الاستراحة، صفّر المراقب فاستلقيت على كومة الشّكاير. مدّ لك رفيقك سيقارة فتناولتها شاكرا وظللت تدخّن، البحر أمامك عالم لا حدود له والسّفن الكبيرة راسية، كلّ شيء من هناك قادم، الآلات والمحركات والخشب والقمح والشعير، ما أصغير هذا العالم عندما يحتاج الانسان الى كلّ شيء. كان لسيقارتك يومئذ طعم جديد بعد التعب والعناء كلّ شيء يصبح لذيذا، كان رفيقك جالسا على حجر أمامك، قال لك:

ـ ترى كيف أن الحياة صعبة هنا؟

لم تستطع أن تردّ عليه، فقد كانت السيقارة بين شفتيك:

ـ لكن لا عليك، بعد اليوم الأوّل يسهل كلّ شيء ستصبح الحياة هنا، كما هي في كلّ مكان، لها لذّتها ومتعتها وستصبح أنت مثلنا تماما، دعك يا أخي من التفكير، سيفرّجها الله.

لم تعد تفكّر طويلا، لقد أحسست اليوم انّك متعب فلم يترك لك التّعب فلم يترك لك التعب مجالا للتفكير، عاد الرّفيق الى الحديث.

ـ أنا مثلا، لم يعد التّعب يرهقني كثيرا لكن ما يؤلمني الظلم نعم الظلم، ومهمّتي

صعبة، عليّ أن أدافع عن الآخرين، اللّصوص على الكي كثيرون يسرقون رزقنا كلّ ساعة والفطنة لازمة ولا أجد وقتا للرّاحة ومع ذلك فأنا سعيد، راحتي عندما أرجع مظلوما الى عمله وأرفع مظلمة لم يقترفها صاحبها.

ماذا تقول ؟ وراء القضبان الحديدية كان الرفاق يتجادلون، الاتحاد والعمّال والسّياسة وبعد اليوم الدّامي امتلأ السّجن وجاءت الأخبار :

ـ النّقابيون سيحاكمون ؟

ـ ماذا حدث ؟

ـ خرج العمّال الى الشارع

ـ ثمّ ماذا حدث ؟

ـ زعماء النقابات في السّجن.

وتواصل داخل الزنزانات الجدال.

ـ ترون ماذا فعلت النقابات ؟

ـ ماذا صنعت ؟ طز، ثورة في يوم ماذا تستطيع أن تحقّق ؟

وراء القضبان يشتدّ الجدال مع الأيام كنت وقتئذ قد عدت الى حالتك الطبيعية ومع ذلك كانت بعض حالات جنونك تعاودك من حين الى آخر. فتنتصب أمام الرّفاق غاضبا :

ـ المقاطعة لا تعامل، كفانا عهرا، القضيّة ليست امرأة تركب، اتركوا القضيّة لأهلها.

ـ لكنّك تركبها أيضا، ألست مورّطا مثلنا.

وتسكت، السكّين قد انغرست حادّة في ظهرك، لماذا يصحبني العهر في كلّ أوان ؟ لماذا ؟

مدّ لك رفيقك السيقارة الثانية قائلا :

ـ انهض يا أخي، لقد حان وقت العمل.

وعدت الى العمل، كانت الشاحنات واقفة تنتظر دورها. وظللت ترمي الشكارة على ظهرك ثمّ تلقي بها على الشاحنة وتعيد ذلك مرّات عديدة ثمّ فترة الاستراحة القصيرة لتعوّض فرقتك فرقة أخرى وقف عليك رفيقك من جديد :

ـ أرأيت ذلك الهبّاط، إنه يريد طرد فرقة بأكملها قبل أن يدخل الليل، إنه يخشى أن يدفع مضاعفا ولكنّي منعته.

ـ وهل لك قدرة على ذلك ؟

ـ لست أنا القادر، العمّال هم القادرون، أنا وحدي لا أنفع شيئا لكن مع الجماعة أكون قادرا على أشياء

وضعت سيقارة بين شفتيك ونفضت غبار شكاير الشّعير في حين واصل رفيقك :

ـ يبدو انّك لا تستطيع أن تفهمني، الهبّاط يريد أن يشتري ضميري بعشرة وهو قادر على شرائه بعشرين أو ثلاثين وهو دائما رابح في صفقته، لكنّي رفضت وهدّدت.

ـ كيف ؟

ـ بكلمة واحدة أوقف العمال ولا أحد قادر على تحريك شكارة من مكانها وتكون خسارته مضاعفة، دقيقة تأخير واحدة في الميناء، يدفع الهبّاط مقابلها مضاعفا.

ـ وهل أنت قادر ؟

ـ يبدو انّك لا تعرفني جيّدا، نحن هنا في هذا الميناء يد واحدة ابحث في أي مكان فلن تجد اكثر منّا تضامنا وصمودا عندما تقتنع وتقرّر.

انتهت فترة الاستراحة القصيرة جاء دورك لتنزل مع رفاقك إلى فناء الباخرة، مهمّتك واضحة الآن رفاقك رأفوا بك، علموا انّك ما بالعمل خبير. الميناء ليس عربة

وبغلا، عليك أن تملأ الشّكاير من الشعير الذي يملأ الفناء، ثمّ تضعها على الرّافعة الّتي تتحرّك ببطء لترفعها الى الشاحنة الواقفة حذو الباخرة، لقد زحف الظلام بسرعة مذهلة فلم تكن تشعر رغم التّعب والارهاق ان الزّمن سيمرّ بهذه السرعة، لقد قتلت قلقك الذي ينخر دماغك أياما طويلة.

أثناء العمل يسكت المرء عن الكلام، كان أبوك يغرس المسحاة في الأرض ثمّ يرفعها عاليا في خشوع ويعيد الكرّة، هذه الأرض الصّلبة يرفعها عاليا ثمّ يلقي بها وراءه ترابا منسكبا كالبحر وبعدما يعرق يخرج ممن صمته ويترك الفارس ويقبل على كأس الشاي ضاحكا كالطفل الصغير، العرق يحتاج الى قداسة والعمل يحتاج الى قداسة، كان العمّال يقبلون على الشكاير في صمت وكانت الفوانيس تضيء أصابعهم وهي تنغرس في كوم الشّعير لتملأ الشّكاير، وفجأة علا صياح حادّ، كان نصف عامل تحت الرفاعة الثقيلة ؛ أقبل العمّال من كلّ اتّجاه في الباخرة وأحاطوا برفيقهم الذي صاح وسكت، لقد أفقد العطب الرّفاعة توازنها فوقعت، لم يعد العمّال يفكّرون في شيء سوى في الرّفيق المشدود تحت الرفاعة، الرفاعة ثقيلة ولكنّها رغم ثقلها يجب أن ترفع في هدوء تام حتّى يخرج الرّفيق دون أن يصيبه سوء عظيم وحتّى لا تقع الكارثة.

أحسست لأوّل مرّة أنك أمام مشهد رهيب، جذع رجل داسته الآلة، هنا أمام المكروه لا مجال للحديث أو الكلام. كلّ فلسفات الأرض تموت أمام رجل يتشبّث بالحياة بشعرة في الهدب فماذا تقول الفلسفات وماذا تروي ؟ وراء القضبان عدت بعد نكستك زعيما، كنت تتحدّث عن العمّال والاستغلال والقضيّة ؟

ـ ماذا يحتاج العامل في هذا المجتمع؟ لقمة الخبز؟ لقمة الخبز يجدها حتّى في المزبلة، مائة زيادة، ثلاثة، أربعة، هل يعني هذا شيئا ؟ العامل يحتاج الى ثورة، وهو وحدها وقودها المقاطعة ؟ الاتحاد ؟ أيّ اتّحاد ؟ الفرصة جاءت، اخرجوا العمّال عن اتّحادهم. وينهض احد الرفاق من فوق الفراش يلقي الجريدة اليومية التي ادخلها

الحارس ثمّ يمسك بمرفق يده اليمنى مبديا إشارة نكراء قائلا :

ـ طز، ها هو يا حمدي رجب.

وتغضب وتلعن الرّفاق جميعا :

ـ بسببكم جئت الى هنا، بسببكم تركت أهلي يموتون جوعا، بسببكم فقدت كلّ شيء حتّى حلمي فقدته، يا أولاد القحبة. اللّعنة عليكم جميعا لولا اخطائكم لما وقعنا كالفئران، لكن يجب أن أعيد الحساب من جديد.

ونهض أحد الرفاق ووضع نظّارتيه ثمّ مسكك من ذراعك :

ـ أجل يجب أن نعيد الحساب من جديد خمس سنوات مرّت كافية لترفع الغشاوة عن العين أو نعرف واقعنا ؟

لكنّك سرعان ما تعاودك حالاتك القديمة فترتد الى نفسك منكمشا «هذا العهر ينتابني في كلّ لحظة، يمسك بي يضيق أنفاسي» في تلك اللحظة أحسست أنّك وسطهم تلامس الأيادي الممدودة لطلب الرّحمة بدأ الصراخ يهدأ شيئا فشيئا وبدأت معه القلوب تضطرب

ـ اسرعوا يا جماعة مزيدا من القوّة

وأحسست أن قوّتك يجب أن تتضاعف، اليد الواحدة يجب أن تكون يدين، والذراع الواحدة ذراعين،

ـ يا جاه ربّي إرفعوا

تحرّكت الرافعة قليلا وتمايلت عن مكانها لكن جزءا من جسد الرّجل مازال مشدودا.

ـ يا جاه ربّي.

تحرّكت الرّافعة أكثر وتزحزحت عن مكانها لكن الرّجل اليمنى لا تزال مشدودة.

ـ يا جاه ربي

في المرّة الثالثة أصبح الرّجال رجلا واحدا، الأيادي الكثيرة يدا واحدة، وأخذت الرفاعة تترك مكانها وظهر الرجل الملقى على أرض الباخرة. ما عاد الجسد نابضا بالحياة بل أضحى جثّة كفنها غبار الشّعير.

أحاط العمّال بالجثّة، صديقهم الذي كان معهم يشرب الشاي ويغمس يديه في كثيب الشعير ويضحك يصمت.

هذه الآلة الميكانيكية خنقت أنفاسه، أيموت الرجل بهذه السرعة؟ لم يعد للضحك مكانا وعندما أقبل الاسعاف كان العمّال رجلا واحدا «الاضراب اليوم وغدا»

عدت الى البيت كان التعب والمصيبة قد أثقلا دماغك فاستلقيت على الفراش ونمت. وفي الصباح بعد أحلام فظيعة مررت كالعادة بالمركز إستقبلك العون، هذه المرّة بحرارة، ابتسم لك ابتسامة صباح مشرق ثمّ مدّ لك سيقارة. يا الله ما هذا الكرم والجود! أعلمك أن الرئيس في انتظارك. صافحك الرئيس بحرارة أيضا، دعاك الى الجلوس أمامه طلب لك قهوة الصّباح.

ـ أبشر يا حمدي جاءك الفرج.

لم تفهم، كيف تغيّرت الأمور بهذه السرعة. فاجأك رئيس المركز.

ـ أنت حرّ طليق، أقم حيثما شئت. وأنت الآن لست مجبرا على زيارتنا.

عندما نجهز المدينة نعطي الحروف كلّ شيء، نسقيه الماء، نبخّر الأرض تحت قوائمه وعندما نجهّز المشنقة نسمح للمعدوم بأن يطلب ما يتمنّى، قد نحقّق كلّ شيء ولكن أمرا واحدا لا يمكن تحقيقه هو منحه الحياة، أن يعيش، أن يرفع السيف المسلول على رقبته من أجل أن يعيش في حريّة ويتكلّم في حرية ويأكل ويشرب في حريّة ماذا تنفع لذائذ الدنيا عندما يحرم الانسان من الحياة؟»

وضع الرئيس سيقارته الفاخرة على نابه، فظهر الخاتم الكبير على اصبعه ثمّ تكلّم.

ـ رغم كلّ شيء نحن فخورون بأمثالك إنّك ابننا الشرعي نعم ابننا الشّرعي، انّك الثمرة التّي غرسنا نبتّها والحكومة تغفر أخطاء أبنائها.

جاءك الفرج يا حمدي، الدّنيا عجيبة، عقلك انقلب، ظلّ أبوك ينتظرك لتحرق فلوس الحكومة، جاءك الفرج وها أنت الآن تدخّن تبغ الحكومة والفلوس آتية.

في الواقع، الحكومة قد فكرت في أمركم جميعا، وقد رأت تكليفات بمهمّة، نحن في حاجة الى ملحق في سفارتنا باليابان وقد رأت أنّك كفء لهذه الخطة

لم يتركك تتكلّم، كانت السيقارة بين الشّفتين ترسل دخانها الفاخر.

ـ نحن نعلم أنّك تحبّ التاريخ، كلّنا نحبّ التاريخ ولكن بدون ضجيج، خذ أوراقك وما تملك واكتب هنا قصّة علوان بوزيد ستكون قصّة طريفة وسننشرها لك، المهمّ أن ترافق، كلّ أوراقك جاهزة، جواز السفر، أوراقك الرّسميّة، أقبل يا حمدي، الضربة القاضية توجّه إليك، شكري عبد الرحيم سقط وأنت؟

كانت روائح الشمع والندّ والبخور تدخل خياشيمك. في شوارع المدينة العتيقة كان تجار الصناعات التقليدية يستجدّون السوّاح. البائع يصبح عبد تجارته، وكان السواح يمرّون، يقفون ويمرّون، يقفون ويمرّون كان وجه المدينة العتيقة تثيرهم وكانت روائح الند والبخور والشمع تخرجهم من دنيا الدّخان والحديد والكبريت والرصاص الى دنيا النبوّة والحلم والحبّ. وقفت أمام جامع الزيتونة، دارت امرأة حولك مرّتين، كانت شقراء وتحمل نظّارات. دارت مرّة ثالثة ثمّ قصدتك، كانت فرنسية جميلة سألتك:

ـ ما هذه البناية؟

ـ انه جامع،

وتنهّدت كأنّها تشاهد شيئا عجيبا

ـ إنّنا نصلّي كما تصلّون فما العجب ؟

قطّبت حاجبيها ورفعت كتفيها

ـ لا تغضبي يا سيّدتي ، تعالي أسقيك كأس شاي .

عادت الابتسامة إلى شفتيها . . .

دخلنا مقهى المدينة العتيقة اخترنا ركنا بعيدا من أركان المقهى ، قدّم النادل كأسي شاي :

ـ ماذا تصنع ؟

ـ ملحق سفارة .

ضحكت فأبرزت أسنانها البيضاء

ـ آه. دبلومات وأين ؟

ـ في اليابان .

قطّبت حاجبيها من جديد

ـ Le Japon !

ـ أجل اليابان

ـ كومينيست أو أنتي ؟

نظرت في عينيها الزرقاوين ، أحسست بدفء شهر مارس «لماذا ينتابني البرد أحيانا ، بردي في القلب وليس في الأوثال بردي في القلب أصابني تلك الليلة ، بنت التاجر في قمّة الشهوة تبكي أعطت كل ما لديها وقالت : لم أعد أملك ما أعطي أخرج ودعني»

ـ لا تحزني يا سيّدتي ، رجل لا أنياب له ، لا يأكل لحم البشر ولا يترك غيره

ينهش لحمه ، لا يؤذي أحدا ولا يتسلّط على الغير يجري ويلهث وراء لقمة الخبز وعندما يجد سقف بيت ينام مرتاح البال ، تعتريه فرحة الأطفال .

ظلّت المرأة تترشّف كأس الشاي ، ثمّ ضحكت كأنها تذكّرت نكتة قديمة .

ـ لا أنت أنتي

ـ كيف عرفت ؟ .

ـ حكومتك متفتّحة وشعبك مسلم . وأسواقنا مفتوحة لبضاعتكم نستوردْ ما تصنعون ، نستورد ما نحتاج وما لا نحتاج ونعطيكم ما نملك ، تبيعون لنا ما تصنعون وتقاومون صناعتنا الصغيرة ، نحن نطالب برفع الأجور والأسعار تشتعل .

ـ لا ، أنت أنارشيست . نعم أنارشيست .

متى يذوب جبل الثلج يا ربّي ! عندئذ ستطير بجناحين خفيفين ستحلّق حول هذه الدنيا الواسعة ستضمّ العالم بعقلك وشرايينك فما أجمل أن يحسّ المرء يوما أنّه يحتضن هذا العالم الكبير. كشّرت المرأة الشقراء وأبرزت أنيابها ، كانت مستعدّة لتدافع عن نفسها بكلّ وسيلة ، شعرت أن الموقف يحتاج إلى الضّحك ، نفثت دخانك ثمّ رشفت كأس الشاي :

ـ سأحدّثك عن نبيّنا الجديد

ـ نبيّ جديد ، أوه . . .

ـ أجل يا سيّتي ، لكن هذه المرّة جاءنا من بلادكم يا سيّدتي ، بلادكم أصبحت أرض النبوءات في العصر الجديد ، فبعد خروجكم ظلّ ربكم في عنايتنا ، يخاف علينا من الحاجة والفقر والمرض وهكذا أصبح في كلّ مرّة يرسل لنا نبيّا .

ـ لا ، لا تمزح يا سيّدي .

ـ كيف أمزح ؟ أنا صادق يا سيّدتي .

صحت في النادل الذي كان وسط القاعة يجمع الكؤوس وطلبت كأسين آخرين فقطّبت حاجبيها قائلة :

ـ لقد شربت كثيرا ، فيه كفاية

ـ لا إشربي ، لا تخشي شيئا ، نحن لا نقتل فكيف بشاينا ؟

عادت المرأة الشقراء ترشّف كأس الشاي ، ثمّ بسطت يدها على المائدة كأنها أمام كاهن وظلّت تنتظر أن تواصل حكمتك ، كان دخان السيقارة يؤذي عينيها الزرقاوين

ـ لم أعد أفهم

ـ ستفهمين هيّا معي

مسكتها من يدها وخرجت

ـ الى أين ؟

ـ الى البيت ، الا تقبلين الضيافة ؟

وقفت ، فكّرت قليلا ، ثمّ قطّبت جبينها .

ـ تريدين معرفة البلد كلّه ، لست دليلا ولا قوّادا ولكنّي أنا البلد كلّه وقبل أن تجيب فتحت باب سيّارة التاكسي وجذبتها إلى جانبك ، ظلّت السيّارة تشقّ طريقها وراء طابور من القطع الميكانيكية المتحرّكة

ـ ماذا عرفت عن البلد ؟

ـ الجمال .

ـ ألا تعلمين يا سيدتي أن الجمال تطير ؟

ضحك السائق ولكنّ سيّارة سريعة تجاوزته فكفّ عن اللضّحك وظلّ يلعن السائقين ورخص السّياقة .

سكتّما عن الكلام . وقفت السيّارة أمام مدخل العمارة ، فتحت الباب ، جلست على الأريكة ، أحسّت بخطورة المغامرة ولكنّها مع ذلك أحسّت بالارتياح . سألتها ضاحكا :

ـ ماذا تشربين ؟

ـ ما تملك ؟

ـ واحدة حمراء هذا ما أملك

ـ لأشرب أيّ شيء عندك الآن

وضعت أمامها القارورة والكأس . أفرغت الكأس الأولى في جوفك ثمّ الثانية . كان العطش يحرق حلقك . لا يقتل البرد الاّ البرد . أفرغت الثالثة والرابعة في جوفك . سألتها :

ـ اشربي .

ـ شرابكم قويّ .

ـ لكنّه لا يقتل .

ـ لا أقدر

ـ قلت لك يا سيّدتي لا شيء يقتل عندنا . نحن ، شرابنا ، أكلنا نحن بدون أنياب ولا أسنان . أناس مسالمون فلا تخشي شيئا منّا . إشربي قطّبت حاجبيها ثمّ رمت الكأس في حلقها وصاحت في وجهك :

ـ ألا تقول لي من أنت ؟

ـ أنا . . . انتظري

دفعت بالكأس الأخرى في حلقك :

ـ أنا علوان بوزيد ، نعم أنا علوان بوزيد . ألا تعرفين علوان بوزيد ؟ وأنت سوزان نعم سوزان ، سوزان الجميلة التّي قتلوها «كان علوان بوزيد واقفا ، كان الدّم يسيل ، كنت واقفا والرّصاصة الطائشة أصابت المقتل . من أجل أن يعيش الانسان حرّا يهان كلّ شيء . لكنّ الضربة كانت قاضية . حدّثتكم ، كلّ شيء بالامكان ، ولكن لماذا الممكن لا يتحقّق ؟ أنا واحد منكم لكنّي أخالفكم . أنا لا أفهم في السياسة وفي الاقتصاد ولكنّي أعيش وأحسّ بالغلط . لقد مات ، سكت قلبه

فجأة . القلبُ الحيّ قد يسكت فجأة ، يتعب القلب ، تنهكه الأثقال ثمّ يقف . كلّ شيء ممكن لكنّها الأكذوبة » . سكتَ ثمّ صحت :

ـ أنا علوان بوزيد أعلم كلّ شيء ، سوزان أيضا قتلوها

بلعت المرأة الشقراء جرعتها الأخيرة . لقد أدركت الآن أنّها في عالم آخر

ـ سوزان هذه . . . أيضا أكذوبة . . . أنا كبوليت . .

وانقضّت على عنقك :

ـ أقتلك ، الأنبياء قد ماتوا . . . أقتلك يا علوان ، أيّها المسيح المصلوب المعذّب .

ولكنها لم تقدر على القتل فتراخى الذراعان ودنت الشفتان البنفسجيّتان . لثمت خدّك ثمّ أنفك وفي النهاية وجدت الشفتان بركة الارتواء .

الفاصلة الثالثة

سمعت يا ولدي ماذا قال عبد السلام الزبّال وتقول لي في النّهاية أنّك من أجلهم ومن غيرهم تدخل السجن ، أيّ كلام هذا يا ولد ؟ ستقول لي «أبي دخل السجن أيضا» اسطوانة قديمة . مصيبتك جاءتك منه ، أنا أعلم ذلك والله مصيبتك جاءتك منه ، أبوك دخل السّجن من أجل امرأة أو تسمّي هذا سجنا ؟ وأعلم أنّك ستصرخ في وجهي كالعادة «هل السجن من أجل امرأة قليل» ؟ لكنّي أنا لم أفهم لماذا سجن أبوك . لقد باغتني هو أيضا ، كنت أريد أن أنجو بنفسي . جدّك رحمه الله كان يريد أن يزوّجني برجل يكبره . أنا رفضت . هذه قصّتي ولا تسمع حكاية العشق والعشّاق . فررت معه وعشت الفضيحة . أبوك باغتني ، قصّته مع السّبنيوريّة أغرتني . قلت أتحدّاها . رجل يسافر من أجل امرأة ، يشقّ الصحراء ويعبر الجبال ثمّ يسجن من أجلها تحلو المقامرة معه وقامرت معه . حياتي مع أبيك تعرفها . علوان بوزيد وقف إلى جانبنا بارك زواجنا فتح لنا بيته في الجبل . انّه عمّك يا ولدي . انّك لا تذكره الآن ولكن عندما ولدت وحده قشّر جلدته وأهدانا خروفا كاملا ذبحه أبوك وأكلت منه كامل أسبوعي . إنّه عمّك لا تنس ذلك . عندما جئنا إلى مغارته في الجبل شدّني من ذراعي وقال :

ـ أنت أصبحت الآن منّا يا جليلة ، زوجك هذا أخي وأنت أختي جدّك أرسل

إليه . كان يريد شراء ضميره «جئني بها ولك ما تشاء» ولكنّه رفض بعض أصحابه كانوا يريدون المساومة وأصبح الخلاف بينهم قائما وكانت أصواتهم ذات ليلة تصل الينا من غوفوهة المغارة :

ـ بنت أحد كبار الفلاحين يمكن أن تفيدنا . استغلّ الموقف . أبوها يمكن أن يدفع .

تركهم يلفون ثمّ صاح فيهم :

ـ جليلة اختارت فلاّحا ، هي الآن اختنا ، أبوها شيء وهي شيء

سكت أصحابه ومن الغد تغيّرت حياتي في الجبل ولكنّك يا ولدي لا تعرف الأشياء كما تجري عندنا ولو عرفت للعنت اليوم الذي فتحت فيه كتاب السياسة . ذات صباح وأنا عند ركعتي الأخيرة صاح عبد السلام الزبال كالعادة عندما يريد أن يثير انتباهي . وضع وجهه في النافذة وشتم حماره . كان يريد أن يثيرني :

ـ كيف الحال يا عبد السلام ؟

وكان ينتظر السؤال :

ـ على ما يرام يا جليلة . لي لك خبر هذا الصّباح

ـ خير إن شاء الله

أرملة علوان بوزيد ستتزوّج .

ـ فأل الله ولا فألك ، يا عبد السلام

ـ يا جليلة ما كذبت عليك يوما .

ـ ومن العريس إن شاء الله ؟

ـ تاجر الحيّ

ـ عبد العزيز ؟

ـ نعم يا جليلة

ثمّ همس:

ـ اللعنة على السياسة يا جليلة ، أنا ما قلت لك شيئا . ونخز حماره وتحرّكت العربة ومضى .

لم أصدّق يا ولدي . حكاية غريبة . عبد السلام الزبال ، لا يكذب ، ظللت اليوم كلّه أفكر ، معقول ؟ التاجر عبد العزيز ماتت زوجته منذ أسبوع هذا صحيح ، لكن بهذه السّرعة يحمل الأمر؟

حبيبة أرملة علوان بوزيد تتزوّج . غريبة يا ولدي . حبيبة بنت خالك وحبيبة أرملة علوان بوزيد وأنت هل عرفت هناك في المدينة الكبرى حبيبة أخرى ؟ والله غريبة يا ولدي أرملة علوان بوزيد في الأربعين الآن . عندما تزوّجت كنت أعرفها ، كانت جارتنا ولكنّها لم تدخل بيتنا . كنّا نلتقي في الشارع أو عند بعض الأجوار لكنّها لم تدخل بيتنا . وكانت تروّج لدى صديقاتنا أنّي غنيّة وهي فقيرة وأنّني متعالية ، أرفع أنفي للسماء . ماذا أقول لك يا ولدي ؟ أنا أمّك وأنت تعرفني . أرملة علوان بوزيد تتزوّج ؟ إعلم هذا يا ولدي ، وعد إلى نفسك ، من أجل من تدخل السجن ؟ الفقراء ! علوان بوزيد أقرب الناس إليك خانته ، زوجته ، حبيبة ، أنا التي كنت أحمل لها القفّة التي يرسلها عندما كان في الجبل . ظلّ عاما كاملا في الجبل ولم تحتجّ إلى شيء ولكنّه عندما ذهب خانته . ظللت أفكّر وفي النهاية وضعت بخنّقي على رأسي وذهبت اليها وجدت بيتها مفتوحا ، فدخلت ، ماذا أقول لك يا ولدي ؟ حبيبة ليست حبيبة ، هذه المرأة لم أعد أعرفها ، لم تعد فلاّحة ابنة فلاّح البيت قد تغيّر ، الحيطان والأرض والأبواب والأثاث في البيت ، تلفاز ملوّن ، هاتف ، موكيت ، فيديو ، آرائك ، طاولة كبيرة وحولها الكراسي ستائر ملوّنة ، خزانة في كلّ حجرة ، سرير فاخر في حجرتها ، التاجر اشترى لها كلّ شيء . فرعت بي لم تكن تنتظر الزيارة ولكنّها فرحت بي :

ـ ترين يا جليلة ، هذا بيتنا الجديد ، الحكومة أعطتنا بيتا ، والأولاد في المدارس ، ماذا أفعل ؟

سكتّ فماذا أقول لها ؟ المرأة كانت فرحة ، البهجة في كلّ ركن من أركان البيت أضافت :

ـ ترين يا جليلة يجب أن نجدّد عمرنا . الله يرحمه مات ولم يترك لنا شيئا . حتّى البيت القديم ينازعنا عليه اخوته ثمّ هو الله يرحمه لم يكن لنا . كان يعيش بيننا كالغريب . تصوّري يا جليلة زوجك يعيش معك كالغريب ؟

لقد باغتتني هذه المرّة . حاولت أن أتجلّد لكنّني لم أفلح

ـ تقولين هذا الآن يا حبيبة بعدما قتل ؟

وصاحت في وجهي ، رفعت صوتها :

ـ لا يا جليلة ، زوجي لم يقتل ، لقد مات ، أنا الّتي أعرفه ، كان مريضا وكنت أعلم أنه يموت في كلّ لحظة ، قلبه لم يعد يتحمّل وأنتم تعلمون هذا ولقد قال لي ذلك بنفسه « يا حبيبة منذ عدت من بلاد الفرنسيس أحسست أن قلبي لم يعد يحتمل »

ـ إذن مبارك عليك الزوج الجديد

ـ بارك الله فيك يا جليلة يا أختي . أنظري عبد العزيز التاجر لم يقصّر ، لقد جهّز البيت وهو سيجدّد عمره معنا . ماذا أصنع يا جليلة ، الرجل متعلّق بنا . تعوّد الأولاد عليه . قلت بعدما مات أبوهم ، يجدون لديه سندا .

وخرجت يا ولدي ، وضعت بخنتي على رأسي وخرجت ، رفضت أن أشرب عندها كأس شاي ، أقسمت لي ولكنّي رفضت . قلت في هدوء :

ـ لقد ذهب الرّجل الذي شربنا الشاي في بيته .

لكنها يا ولدي غضبت المرّة واللبوة كشّرت عن أنيابها ، لم تعد حبيبة الّتي عرفتها كشّرت عن أسنانها ، أبرزت مخالبها .

ـ يا جليلة ، أنا أعرفك ، لقد كنت عاشقة ، ذهبت إليه إلى الجبل كان يجيئك إلى البيت

ـ اعقلي يا حبيبة

ـ اعقلي يا جليلة يا بنت البيوع يا عاشقة الرجال . يا . . ؟

وعدت إلى البيت لم أكن غاضبة . أنت تعرفني يا ولدي أنّي لا أغضب أبلع السكين بدمها ولا أغضب كان عليّ ألاّ أذهب ، كنت أريد أن أتأكّد فقط . كلام عبد السلام الزبال كان صادقا . عندما جاء أبوك من الحقل أعلمته ، لم يهتمّ بالأمر . وعندما قدّمت له كأس الشاي الأوّل أعدت عليه الموضوع ، ركز الكأس أمامه :

ـ يا امرا ، ماذا أصابك أنت وولدك ؟ علوان بوزيد مات الله يرحمه وحرمته هي حرّة وأنا عندما أموت وما تزال فيك قوّة تزوّجي ، لا سامحك الله ان لم تتزوّجي يا جليلة .

أبوك أيضا لم يعد يفكّر في علوان بوزيد . ظلّ يشتغل في حقله ولا يهتمّ . كان يقول لي دائما :

ـ هذه الأرض تنسيني كلّ شيء عندما أرفع المسحاة أنسى كلّ شيء أنساك حتّى أنت يا جليلة

ـ لكن علوان بوزيد صديقنا .

ـ أجل انه صديقنا ولكنّه يخدم في السياسة وأنا لا أفهم غي السياسة

ـ لكن علوان بوزيد فلاح مثلك وله أرض

ـ هو تعلّم السياسة ، أخذها عن الصّنايعيّة ، تغرّب وعرف المنفى ، أمّا أنا فلم أفعل سوى أن سافرت إلى قسنطينة

ـ من أجلها هي . . .

ـ لكنّها ماتت . . .

ـ أو ما تزال تذكرها . . ؟

ـ ما فائدة ذكر الموتى يا جليلة ؟ علوان بوزيد مات أيضا .

كان أبوك حزينا. كان يتألّم، كان يرفع المسحاة ويتألّم. لم تدرك يا ولدي كيف يكون أبوك حزينا. يقول لي:

ـ كلّهم استفادوا من السّياسة. أمّا أنا فلم أستفد شيئا. أخوك عاد ملاّكا. زوجة علوان بوزيد أعطوها بيتا. أمّا أنا فانظري يا جليلة. لولا ربطة السّلق والمعدنوس لمتّ جوعا. البيوت المكيّفة والقروض تعطى للكبار وأنا وغيري نعيش على المسحاة. عندما تكلّ هذه الذراع قسمي وقسمك على الله.

لن تدرك يا ولدي حزننا. ربيناك وعلّمناك لتنشلنا من الفقر، أبوك كبر، أصبحت المسحاة ثقيلة على ذراعه. الزّمن يا ولدي يلعب لعبته. أبوك لم يعد الرّجل الذي شقّ الصّحاري وعبر الجبال من أجل امرأة. التعب والهرم أرهقاه. انظر اليه الآن ممدودا على الفراش، أبوك لم يعد أباك. المرض والهرم وأنا ماذا أصنع يا ولدي؟ اطلب الرحمة من خالك، من حبيبة ابنة خالك؟ أترضى يا ولدي لي أن أمدّ يدي إلى خالك وأنت يا ولدي لا تدرك حالي.

الفقراء؟ نحن الفقراء يا ولدي أبوك عاش ويموت فقيرا، لم يمدّ يده إلى أحد. عندما عرض عليه خالك مشروع البقر لم يقبل، أنا الّتي أرغمته قلت له:

ـ أخويا الآن رجل قويّ في الدولة، دعنا نستفيد من خيره لكنّه في البداية أبى، وظللت طوال الليل والنّهار ألحّ عليه حتّى أذعن:

ـ من أجلك يا جليلة، لم أمدّ يوما يدي إلى أحد، والله من أجلك ولمّا وقع ما وقع مع خالك، لم يقل لي شيئا. ربض على حزنه كانت المسحاة دائما تلهيه.

توقّفت جليلة عن التّفكير، الخيال ذهب بها بعيدا. تنهّدت وقفت عند باب الحجرة، الشيخ لا يزال نائما، فكّرت: «لست أدري ماذا سيحدث للشيخ. أهيّىء نفسي، هذا أفضل، الروح بيد الله، لكن يجب أن استعدّ لكلّ طارىء. أخذت المكنسة وانحنت تجرّ رجليها وراءها. البيت مربّع دقيق الزّوايا، في كلّ زاوية

برميل تملؤه بماء المطر في الشتاء والربيع وعندما يقدم الصيف تصبح البراميل فارغة ولكنّها تظلّ قابعة في زوايا ، تظلّ قطع زنك مجوّفة لا غير . أخذت العجوز تدحرج البراميل الواحد تلو الآخر ، أحسّت بمشقّة بالغة وهي تحرّكها من أمكنتها ، حرّكت البراميل الأوّل مجموعة من الخنافس السوداء تخرج من جحرها . اقشعرّ بدنها منذ زمن تكره رؤية الخنافس ، ماذا ستفعل لها ؟ ما أبشع أن تراها مقتولة لكن الخنافس ستتسرّب إلى الحجرة وستتسرّب إلى فراش الشيخ ، أخذت المكنسة وظلّت تدقّ بها الأرض . رائحة كريهة بدأت تتسرّب ، رفعت المكنسة قطع سوداء ملطّخة فيها سائل أبيض ، اقشعرّ بدن العجوز وأحسّت بدوّار في رأسها ، غلبها الدوّار ، أحسّت بما في بطنها يغلي ، ذهبت إلى المرحاض أفرغت من فمها ما بجوفها وجلست مسندة ظهرها إلى الحائط .

بهو البيت ضباب كثيف ومن الضباب يخرج وجهان متقابلان : الولد وخاله :

ـ يا جليلة يا أختي ، هذا الولد عنيد ، لقد خرج من يديك ، لقد دلّلتيه كثيرا أعلم أنّه ولدك الوحيد ، وأنّك تعذّبت من أجله وانتظرت طويلا حتّى يجيء ، لكنّك لم تحسني التربية ، قلت لك يا جليلة اضربه . الضرب سيجعل منه رجلا ، لكنّه لوى العصا في يدك ، لا أنت ولا أبوه قادران عليه الآن ، انظري اليه الآن أين ؟ في يد العساكر . والسّين والجيم ووجع الرأس وأنت لا تستطيعين الاّ الدّموع ودموعك الآن لا تنفع شيئا . ولدك ضاع منك ، ضاع منّا يا جليلة يا أختي .

وفي لحظة يزول الوجه ولا يبقى الا الولد ، تنظر إليه ، ترتعش شفتها السفلى ، تريد أن تكلمه ، أن تعاتبه وتودّ لو تمسكه بين ذراعيها . كان الولد واقفا :

ـ حبيبتي يا أمّي ، الدموع على الأموات ، كفكفي دمعك وأنا لا أزال حيّا ، سأعود اليك يا أمّي ، اطمئني ، افرحي ، لا شيء يدوم على حال إفرحي انفرجت عيناها ، بدأ الضباب يتراوح شيئا فشيئا وجه السّماء الأزرق بدأ يلوح . . أحسست براحة فجئية ، وضعت يديها على الأرض ونهضت .

مسكت المكنسة من جديد، ظلّت تحاذي الحائط وتجرّ رجليها تركت البراميل على حالها. صل من النافذة، عبد السلام الزبال. أوقف عربته وأدخل رأسه في النافذة:

ـ كيف الحال يا جليلة؟

جرّت رجليها إلى النافذة

ـ كما ترى يا عبد السلام، أواحنا بيد الله.
ـ كيف حال الشّيخ خفّف الله عليه؟
ـ ينتظر ساعته يا عبد السلام يا خويا
ـ كان الله في العون يا جليلة، الولد هل سمعت عنه شيئا؟
ـ لا شيء يا عبد السلام
ـ حماه الله يا جليلة يا أختي الولد أهل لكلّ خير إنه صاحب حقّ يا جليية، والحقّ لا يضيع.
ـ أيّ حقّ يا عبد السلام، حتّى أنت أصبحت تقول هذا؟
ـ لست وحدي أقول هذا، الجماعة في السنديكا يقولون هذا، هم أيضا يكذبون؟
ـ أنت أيضا عرفت السنديكا يا عبد السلام الزبال؟
ـ ماذا أصابك يا جليلة، أين صبرك؟ الأعمار بيد الله والولد سيخرج نعم يا جليلة الولد سيخرج ونفرح به جميعا.

لم تصدّق جليلة ما تسمع، عبد السلام الزبال أضحى يتكلّم لغة جديدة، لم يعد يلعن ويشتم فقط أصبح الآن يتحدّث عن السنديكا والناس في السنديكا. ماذا حدث في هذه الدنيا؟

ـ لكن السنديكا سياسة يا عبد السلام وتؤدّي إلى السجن

ـ يلعن بو السياسة والسياسيين . لست خائفا الآن يا جليلة ، الخبزة لا يقطعها الا الله ومن أجلها أضع رأسي تحت المطرقة

صاح الشّيخ في الغرفة المجاورة ، هرعت العجوز وتركت النافذة مفتوحة ررفع الشيخ يديه :

ـ اسنديني يا جليلة ، أريد أن أجلس

سعت العجوز اليه ، أخذته من ظهره ورفعت الوسادة وراءه ، ظلّ الشيخ ينظر من خلال النافذة التي أمر بفتحها . نظرات تائهة لا تستقرّ ولا تقف على شيء ثمّ رفع صوته قليلا :

ـ يا جليلة أين الولد ؟

ماذا تقول له ؟ الولد في الغربة ، الولد وراء القضبان ، في يد العسس في سين وجيم ، لكن الشيخ لم يعد يذكر شيئا .

ـ يا جليلة أريد أن أرى الولد

ـ طيّب الولد الآن بعيد وسيأتي

ـ يا جليلة قلت لك أريد أن أرى الولد أين هو الآن ؟

ـ سأرسل اليه الآن وسيأتي

هدأ الشيخ . عادت نظراته ترتمي على الأشياء في البهو ، البراميل واقفة في الزوايا كالشياطين تحت الشّمس ، الحيطان المتآكلة في بياضها الباهت ، أرض خربة وماعدا ذلك لا شيء . نظرات الشيخ خرجت ، تاهت بعيدا عبرت الحيطان والبراميل وذهبت بعيدا .

ـ يا جليلة لقد رأيت علوان بوزيد

سكتت جليلة ، ما عليها الآن الاّ أن تسمع لا غير الشيخ الآن في عالم الرّؤى والأشباح . عليها أن تسكت يطحنها الألم وتسحقها العزلة ، لا فائدة في البكاء . لقد

تهيّآت للمكروه منذ أسبوع وعليها أن تستجيب للشيخ بالسّمع حتّى يستمتع بلحظاته الأخيرة .

ـ لقد رأيته في أفريقا . رأيته يحرث ويزرع ويحصد . مطمور افريقا امتلأ القمح فاض وفاض ، يملأ ويحصد ويدرس والسّبنيورية وراءه تملأ الأكياس وتحملها إلى المطمور ، المطمور فاض ، القمح سال كالماء خارج المطمور .

جليلة تسمع حزينة ، الشيخ يهذي ، عزرائيل يرقص أمامه ، يشعل النّار ويستعدّ للوليمة وجليلة تسمع :

ـ عندما رآني فتح لي ذراعيه ، ضمّني إلى صدره قال لي «قف معي ضع يدك في يدي المطمور امتلأ ، افرح يا أخي ، الخير قد ملأ الدّنيا ابشر . من القمح نصنع كلّ شيء» لكنّي قلت له «أخشى عليه من الرّجال المقبلين من البحر ، الروامة سيفرغون المطمور ويبقى الناس جياعا بلا قمح» لكنّه ضحك هازئا «لا يا راجل روما احترقت من زمان ثمّ نحن هنا . . ماذا نصنع ؟» ولمّا رأتني السبنيوررية ارتمت في أحضاني عانقتني ، حملتني النشوة بعيدا ، لم تعد الأرض قادرة على حملي ولا السماء على احتوائي . وأخيرا التقيت بحبيبتي . بحثت عنها في كلّ الدنيا وفي النّهاية وجدتها ، وجدتها يا جليلة . جلست إليّ ، حدّثتني ولم تذكر الصعلوك الذي اغتصبها منّي ، كانت فرحة . حدّثتني عن الأرض وعن علوان بوزيد الذي يحرث . «وأخيرا عدت لي يا حبيبي ، ظللت السنين الطويلة أنتظرك . علوان بوزيد وعدني ، قال لي ، لا تقلقي سيأتي ، ساعديني على هذه الأرض وهو يحبّ هذه الأرض ولذلك فهو سيأتي . ظللت أحرث الأرض وأنتظرك أرضنا أعطتنا كلّ شيء . المطامير تمتلىء وعندما يأتي الشّتاء نفتحها للفقراء الذين يقبلون من كلّ صوب . يقف علوان بوزيد أمامهم ويتكلّم :

ـ يا فقراء العالم ، هذه المطامير لكم . نقتسم جميعا الجهد والعرق والمحصول . الجهد جهد الجميع ونأكل حتّى تملأ البطون الخاوية ونمنح ضعيفنا قوّة ونعطيه من أرواحنا نفسا» .

ثمّ يحمِلون دوابّهم أكياس القمح ويذهبون إلى دورهم وعندئذ يغلق علوان بوزيد المطامير ويلتفت اليّ

ـ يا عزيزتي ! ما ألذّ أن نتحسّس أنفسنا في غيرنا !

ويسكت

ظلّت تحدّثني ، وتروي لي قصص العاشقين..............

....

....

....

....

....

....

....

....

....

.... ثمّ أفقت يا جليلة.

سكت لشيخ أزاحت الوسادة من تحت ظهره ومدّدته على الفراش ، تعلم الآن أنّه مع السبنيورية يعانقها ، يضع أصابعها على شعرها الغجري ايه يا دنيا ! عاش الشيخ ومات في حبّ غجرية « يا ولدي لو تعلم كيف أحبّ أبوك غجريّة. هذا السرّ لا أعرفه إلاّ أنا ، الناس الذين عرفوا نسوه. والبعض الذي ظلّ يذكره مات : أبوك الآن ما عاد يسمعني ، خرج عن طاعتي ، تركني في الأرض وحلّق في عالم آخر. الكلّ يا ولدي يهون الاّ أن يتركني في اللّحظة الأخيرة على هذا النحو.

ماذا صنعت يا ولدي ؟ أنا التي عندما أرادني تركت كلّ شيء وهربت معه إلى الجبل. ظيفها ظلّ يا ولدي يلاحقني كاللّعنة ، ذات يوم عندما طلب شبّابته أثارني عاتبته :

ـ تتركني يا راجل من أجل احدى بنات الغجر ؟

ـ تقصدين السبنيورية؟ فعلا ، لقد كانت غجريّة ، لكنّي يا جليلة أنا أعيش لك أنت وحدك الآن؟

ـ لكن لمن تنفع في الشبّابة إذن؟

ـ لنفسي ، الغجريّة ذهبت. لكنّ طيفها لست أدري. ثمّ إني لم أحاسبك على حياتك القديمة

أبوك أيضا يعرف كيف يغمز. يشير إلى حياتي القديمة ، هو أيضا سمع عنّي ، حدّثوه قالوا له أشياء كثيرة «بنت أكابر هذه. لها متاعبها ، دعك منها» لكني كيف اقنعه يا ولدي متاعبي كانت من نوع آخر وأنت أيضا كيف أقنعك ، لم أعشق يوما. عشقي كان في أبيك ولا أحد غيره يا ولدي ، فلماذا ! لا تفهم وتريحني عشت عمري كلّه ملعونة ، اللّعنة تلاحقني كلّ يوم ، طيف احدى بنات الغجر وأنت الذي لا تريد أن تهدأ. أنت يا ولدي بيضتي الوحيدة لكنّها البيضة الحارمة : حلمي الذي ظلّ يغمرني طول عمري يتبدّد في النهاية كلا شيء.

عاد الشيخ يتحرّك على فراشه. رفع صوته :

ـ يا جليلة الولد . ..

حاولت أن تبدّد مخاوفه. بنت الغجر وعلوان بوزيد والولد.

ـ انه قادم يا شيخ لا تقلق.

حرّك الشيخ يده بحركة عصبيّة :

ـ لا يا جليلة . .. قلبي يحدّثني

ـ خير إن شاء الله

سعل الشيخ . خرج صوته خافتا :

ـ الولد ليس بخير يا جليلة ، إني أراه الآن أمامي ، خيوط العنكبوت حوله. الولد ليس بخير يا جليلة.

عاد صوته ضعيفا يختنق شيئا فشيئا داخل حنجرته. حشرجة الموت في الاعماق. عزرائيل جهّز وليمته. جذوة النظرة الصافية خمدت. بياض العين ارتمى على الأشياء الموجودة في البيت. العجوز أمامه ، شعرها المتخلّل بالبياض قطعة القماش السوداء على الرأس. قطعة الذهب التي تمسك بالفوطة ، الهيكل العظمي بدون ملامح. نقطة الضوء التي تتدحرج من السقف. الحائط الأبيض كالكفن. الطاولة بقوائمها الأربع والنافذة والباب ثقبان مستطيلان في الحائط وفي الخارج لوحة كبيرة من البياض .

ارتبكت العجوز. خارج البيت كان عبد السلام الزبال واقفا. أدرك الأمر بسرعة. جاء الجيران ملؤوا الحجرة الضيّقة. حشرجة الصدر ارتفعت. غاب النظر وراء غيمة بيضاء. خارج الحجرة نظر عبد السلام الزبال في وجه العجوز :

ـ صبرا يا جليلة.

لم تستطع جليلة الصبر. أجهشت بالبكاء. أخذها عبد السلام الزبال بين يديه. بركة الحنان فاضت.

ـ الولد يا عبد السلام . .. الشيخ طلب ولده وها هو يرحل ولا يراه

ـ صبرا يت جليلة.

ـ الولد سيعود الولد سيعود يا جليلة.

ـ متى يا عبد السلام متى ؟

ظلّ عبد السلام يحتضن العجوز ؟ ماذا سيقول لها ؟ هو أيضا في السنديكا سأل الرّفاق. منذ مدّة أصبحت حيرته كبيرة.

ـ ماذا نريد بالتحديد يا جماعة ؟
ـ الأجر.
ـ لا غير ؟
ـ ماذا تريد ؟ الحيلة شاطت ويجب أن نعيش
ـ والذين دخلوا السجن
ـ ماذا تقصد ؟
ـ ابن جارنا خاله قدّ الدنيا ، يمكن أن يجعله مديرا ولكنّه دخل السجن.
أدرك أحد زعماء السنديكا مقصده ؟
ـ لا يا عبد السلام . .. من أجل مجتمع عادل

وظل أسبوعا كاملا يفكّر « مجتمع عادل » ظلّ يمرّ أمام البيوت. كانت الزّبالة التي يرفعها تملك الجواب. أحياء المدينة ليست واحدة. ولكنّه لم يستطع الجواب المقنع فكّر : « هذه فذلكة ، منذ ولدت، وأصابع اليد ليست واحدة. لا يقدر على التسوية الاّ عزرائيل. وأنت يا حمدي رجب تسافر وتترك الجامعة والوظيفة الكبيرة من أجل تسوية الاعوجاج خرّف هذا اعوجاج في الرأس والدّماغ ، متى يزول الاعوجاج متى ؟

الأنبياء عجزوا. أمّة محمّد هذه لا ينفع فيها مناد. تعذّب أنت وعذّب أمّك المسكينة » أدرك زعيم السانديكا حيرته جلس اليه في مقهى المقرّ. السؤال كان ملحّا سيقارة وكأس شاي وبدأ الحديث :
ـ الأجر والأسعار . ..؟
ـ ماذا تعني ؟
ـ دوّامة . . أجر لا يلحق وسعر لا يقف لقد عيل صبري. متى متى ؟
ـ الحياة أسباب يا عبد السلام. لسنا وحدنا. النّاس في بقاع أخرى يموتون. هم هنالك لا يبحثون عن الخبز. يبحثون عن أرض عن وطن. نحن هنا أفضل بكثير. لنا أرض ولنا مشاكل أيضا. مشاكل عويصة أحيانا وبالصبر سنجد لها حلاّ. سنختلف

لكن هذا لا يهمّ في يوم ما سنجد الحلّ. أنا أيضا كنت مثلك يا عبد السلام، كنت في الجامعة، لقد عيل صبري مثلك ومثل جارك حمدي رجب، لا تقاطعني، أنا أيضا أعرفه وعرفت السجن مثله. الحال الآن أفضل. بدأنا نتحدّث عن الديمقراطية، عن الحريّة، عن الوطنيّة. مصلحة الوطن في المقدّمة ثمّ بعد ذلك يأتي كلّ شيء.

بدأ عبد السلام الزبّال يفهم، الأمور ضبابيّة عنده لكنّه بدأ يفهم وهو الآن على يقين وخو يحتضن العجوز أن الأمور ستكون أفضل. حمدي رجب سيعود والوطن سيكون أفضل. لا تبك يا جليلة لكن جليلة ظلّت تبكي. في اللحظة المؤثرة دخل الخال ومنذ البداية أدرك الوضع. جليلة وكفّاها على وجهها وأمامها عبد السلام الزبال والحجرة الممتلئة بالوجوه الخاشعة. تردّد، أحنى رأسه. حشرجة الشيخ ترتفع. وجوه كالحة تمايلت نحوه. تراجع كفّت العجوز عن البكاء. مسك أخته من ذراعها وأدخلها إلى الحجرة الأخرى. ظلّ عبد السلام الزبال منتصبا في ساحة الحوش.

ـ حمدي؟

ـ ماذا به حمدي؟

ـ هل جاء هنا؟

ـ ماذا أصاب الولد؟

ـ لقد فرّ يا جليلة. الشرطة تبحث عنه

لم تستطع جليلة أن تصدّق «يا ولدي أنت اللعنة التي تلاحقني، لا انت ارتحت ولا أرحتني. يا ربّي ماذا فعلت حتّى أشكل فيه»

ظلّ عبد السلام الزبال واقفا.

في الحجرة البحرية انحنت الرؤوس. الشيخ هدر كالجمل

ـ الولد يا جليلة . .. . !

ثمّ لوى عنقه وارتاح.

المقطع الرابع

بعد يومين من الاضراب عاد عمّال الميناء إلى شغلهم في الميناء يلتئم الجرح بسرعة ، رياح البحر اللاذعة قادرة على تقديم الشفاء بسرعة ، البحر كون غريب يمدّ ذراعيه إلى الدّنيا جميعا فتختلط الأشياء وتتفاعل الأمم والأجناس والمناخات. من البحر تأتي ريح قويّة أو ضعيفة أو قاسية ولكنّها تأتي بالدّواء الناجعللجروح الدامية.

عدت إلى شكاير القمح والشعير، أصبحت الآن تتحرّك في الميناء في هدوء ، لقد أحسست أن الشكارة أصبحت تطيعك بمسكة عنيفة من الجانبين ترتمي على الظهر وديعة هادئة ثمّ تلقي على الشاحنة الواقفة ، شكارة القمح كالمرأة يجب أن تقابل قسوتها بالقسوة وعنفها بالعنف وعندئذ كالمهر المتعبة تركن إلى السكينة وبأطراف الأصابع تفتح الزرّ وتأخذ الحلمة وتعضّها فتموت القسوة بين الهدب وتقول لك العينان الحالمتان «خذني معك ، اصهرني في ذاتك ، احملني بعيدا ، فز بي ، اقتلني».

أحسست أن التصورات الكئيبة بدأت تتبدّد ، عاد الجسد إلى حجمه الطبيعي ، على البغل كنت ، لقد مرّت حالة الألم ومرّت حالة التصوّرات الكئيبة ولكنّك أصبحت تعيش ، الكتب ! لتذهب الكتب إلى الجحيم لا ، لكن مؤقتا. الكتب والقراءات والمناشير لها أوقاتها ، تقرأ عنهم ، يعيشون هنا يأكلون ويشربون ، يتعبون

وينامون ثمّ يموتون أيضا. عندما انتهى العمل دعاك الرفيق إلى قارورة فلم تمانع ، كان مقهى الميناء كعادته بعد انتهاء العمل ، يأتي العمّال لكي يرووا عطشهم. قارورات البيرة المثلّجة وحدها قادرة على ذلك.

سألك الرفيق وهو يمسك بقارورته :

ـ كيف وضعك الآن ؟

ـ كما ترى

ـ امرأة سألتني عنك

ارتعشت القارورة بين يديك ، أيعقل أن تلاحقني العيون في كلّ مكان ؟ ماذا أصنع آن ؟ كيس القمح على الظهر ، لست لصّا ولا مهرّبا ، ولست موظّفا في الحكومة. المناورة الجديدة بدأت ماذا يقول. ذلك الأب لو يراني في هذا المكان ؟ سيلعن أمّي وسيعود إلى تلك الأغنية القديمة « لقد قتله غرورك يا امرأة ، انظري مذا فعلت بالولد ؟ »

أردف الرفيق :

ـ إنها تريد بك خيرا.

لقد فهم خواطرك ، فهم حالة ضعفك ، لكن لا تهتم ، كلّ شيء يحسب في هذه التجربة الجديدة « لكن هذه المرأة من عساها تكون ؟ حبيبة النقية الطّاهرة ، حبيبة القلب ، حبيبة منتهاي ، حبيبة أجمل من في الدّنيا ، لكن أين حبيبة ؟ الخاطر ذهب بعيدا بعيدا ، حبيبة هناك ، كان الخال واقفا كان يدخّن سيقارته ويلحس شفتيه : « اطمئني يا بنت أمّي سأبحث له عن وظيفة » وكان الوالد على الحصير ، لقد أنهكته الفرحة فقد آن له ان يفاخر الفلاحين : « الولد نال الباكالوريا في النّهاية » في تلك اللّيلة لم تفرح ، لم يهزّك الطّرب ولم تنتش . وفجأة أدرك الاعياء وغمرتك الظّلمة . العربة والبغل ، ضربت رأسك على الحائط ، نتفت شعرك الدودة ، الكلبة

بنت الكلبِ ، يجب ان تقتل الدودة ، سنين القهر . البغل والعربة وبنت التّاجر وحبيبة «يجب أن أسافر ، المدينة الكبيرة هي وحدها ستعيد الي يقيني ، المدينة الكبيرة ، الشّهادة والشّوارع الكبيرة والنّاس الّذين أمرّ بهم ولا أفهمهم »لم تبك الأمّ ، وحدها كانت المؤمنة بك ، لم تفهم شيئا كثيرا من حديثك ، قبلتك على جبينك و قالت : «سافر يا ولدي اريدك موظّفا كبيرا ، كخالك أو أكثر » سافرت ، لا الشّهادة وَلا الوظيفة الكبيرة عامل من صنف جديد في مخبر في أحد المصانع ، سافرت وَلم تعد . الدودة تنهش من الداخل ، يجب ان تقتل ، الدودة أبوك وحده يعرف كيف يقتل الدودة «يا ولدي ، الدودة ، ملح الارض يقتلها ، الدودة شمس الأرض تحرقها ، افتح الأرض سلّط عليها شمسها ، ستجد الكلبة بنت الكلب ميّتة ، الدودة لا تأكل الاّ الثّمرة العفنة ، الدودة لا تأكل الاّ الميّت لكن الحيّ يقتلها ، الملح يقتلها الشّمس تحرقها».

عدت إلى الشغل ، لم تبحث عن رفيقك ولم تسأل عنه ، قال لك يوما : «أنا لا أفكّر كثيرا لا أجد الوقت لكي أفكّر ، في كلّ يوم ، أجدني أمام مشكلة وعليّ ان أجد الحلّ الذي يرضي الجميع ، عينك ميزانك ، لا ندّعي بطولة ، لا يجب قطع الحبل بسرعة» عد إلى الشكارة ، في هذه اللحظة تنقطع عن التفكير ، الحركة وحدها تتكلّم ، تأخذه من وسطها ثمّ تنحني وتدير جسدك جانبا وبحركة عنيفة تأخذ مكانها . وتمضي الساعة تلو الأخرى على الخيط أن يظلّ متماسكا . عندما مات العامل اجتمع العمّال ، كنت واقفا تحاول أن تفهم ، ولم يطل الجدال كثيرا قالوا «الاضراب ! يجب أن تكون الرفاعات سليمة ، حياتنا يجب أن تكون في أمن» لكنّك لم تستطع أن تفهم وقفت كالملسوع :

ـ حياة رجل كاملة ثمنها يوم اضراب ؟

ـ ماذا تعني ؟

ـ رجل مات ولا نفعل شيئا ؟

ـ ماذا تريد ؟

لم تستطع أن تجيب ، كنت تريد أن تقول « أن نخرج إلى الشارع ، أن .. أن .. وعادت تصوراتك الكئيبة . الدودة تنهش من الداخل ، متى ستموت الكلبة بنت الكلب . وعندما انفضّ الاجتماع جاءك الرفيق وسار معك قائلا : « أنا مثلك يا أخي أريد وأريد ، كلّنا نحلم ، هذا الميناء أريد أن يكون لنا جميعا ، سِلَعَهُ توزّع علينا ، نشبع جميعا ، نفرح جميعا ، ولكن ... ؟ »

ـ ولكن ؟

ـ من يعطي للأطفال خبزة العشاء عندما لا يجد الواحد منّا ثمن الخبزة في الجيبو عندما نجوع ، هل سيكون النّاس معنا ؟ النّاس في الشارع يبقون في الشارع ، يدخّنون سقايرهم حياة الميناء لا يعرفها الاّ أصحاب الميناء ونحن وحدنا أصحاب الميناء ...

عليك أن تحرّك قدمك في بطء ، ثمّ تمرّ إلى جانب الشاحنة في بطء ثمّ تجمع أنفاسك لتلقي بالشكارة إلى الشاحنة في حركة سريعة وعلى الخيط ألاّ ينقطع ، حاذيت الشاحنة واستجمعت كلّ قواك وفي لحظة الحسم ، زلّت القدم ، انقطع الخيط ولم تصل الشكارة إلى ظهر الشاحنة وسقطت ، أين أنت الآن ؟ السيارة والممرضة وجميع الرفاق . السيارة السريعة والميدعة البيضاء والابتسامة الوديعة هذا العالم الجديد الذي يحيط بك ويبدو ذلك الوجه الفلاحي « يا ولدي الدودة نهشت كلّ شيء ولم تبق لنا شيئا » كانت الدودة قد انتشرت في الحقول بعد أمطار بداية الخريف .

ـ الدواء . ... الدواء في اسوق

ـ أي دواء يا ولدي ؟ لا يقتل الموت الاّ الحياة ، الدودة الشمس وحدها تقتلها الملح يفنيها .

ويأخذ المسحاة ويشرع في قلب الأرض ، ويختفي الوجه في الأرض ويظهر وجه آخر ، الأمّ التي تصلّي للولد الذي سافر بعيدا ، يصبح موظّفا كبيرا ، لكن الولد سافر ولم يعد وبين الوجهين وجهها ، حبيبة نعم حبيبة ، لكن أين حبيبة ؟ حبيبة بنت الخال في بيت التاجر الكبير ، الميدعة البيضاء والوجه الأنثوي الجميل وصوت الأمّ النابع من عمق الأرض وصورة الأب المحني على المسحاة والسيّارة التي تسرع والرّفاق الذين أحاطوا بك ، الألم ليس من الزلّة ، ليس من الرّحل التي انكسرت الألم في الدّاخل ، نعم في الداخل «يا أبي الذي هنا . علمني كيف تفتح الأرض ، كيف تسلّط عليها شمسها . علّمني كيف الدودة يقتلها ملح الأرض ، كيف تحرقها شمس الأرض ، علمني كيف تموت دودة الأرض» عندما صحت استيقظت ، كان وجهها فوق ناظريك ، عادت التي كانت تراك تتعذّب من خلال النافذة ! ابتسمت اليك ، وضعت يدها على جبينك : ما أجمل هذا العالم بنظرة امرأة ، بابتسامة امرأة يدها على الجبين كمادة على الجرح النازف قالت :

ـ حمدا على السلامة

في هذه المدينة لست وحيدا ، بنت التاجر تزوّجت وبنت الخال لم تصمد إلى النهاية ، التاجر الكبير صاحب مقعد في المجلس البلدي أغراها ، بكت أمّك عندما علمت ، جاءتِ إليه توسّلته لم يكن يسمع شيئا :

ـ الدنيا حظوظ يا أختي ، البنت كبرت وولدك سيكون فأر سجن والوليّة في حاجة إلى رجل ولا إلى فأر سجن .

في هذه المدينة لست وحيدا ، امرأة في هذا العالم تحسّ بألمك ومعاناتك ، امرأة في هذا العالم وقفت على ضفّة النّهر ، ابتسمت لها ، وضعت يدك على يدها . الدفء يسري في الجسد والأوصال ، يعود إليك دفء الأشياء . عندما يؤمن الانسان بشيء يحبّ ذلك الشيء يصير للشيء طعمه الخاصّ أيضا وعندما يفقد الانسان ذلك الشيء يتغيّر لون العالم ويتبدّل طعمه ، كالماء يصبح لا لون ولا طعم ، ولكن الإنسان

يعيش . لابدّ أن يعيش الانسان من أجل هدف ما . والهدف يصنع ، يُقَدُّ بالدم أحيانا . هل يقتل علوان بوزيد بهذه السهولة ؟ هل يكون معبرا رخيصا بهذه السهولة . لقد انتقل شكري عبد الرحيم بسرعة إلى الضفّة الأخرى لم يمت علوان بوزيد شكري عبد الرحيم هو الذي مات ، سكت قلبه فجأة أو سقط في بئر من آبار الآثار أو انتحر . انّه مات وكفى ، فعندما يموت الانسان فلماذا يسأل عن سبب موته ؟ وكنت ترى رفيقته قد أصابتها الصاعقة كالطيرة المكسورة ذهبت اليه ، منعها الحاجب من الدخول «الدخةول بموعد مسبّق يا آنسة» خاطبته عن طريق الهاتف . فانقطع الهاتف عندما سمع صوتها . ما أبشع هذا التصوّر وما أبأسه .

شكري عبد الرحيم يقتل نفسه قبل أن ينجز مشروعه العظيم ، وأيّ مشروع ؟ سينشر قصّة علوان بوزيد ويفجّر القنبلة وسيخرج الشعب إلى الشارع ويصفّي حساباته ويظلّ شكري عبد الرحيم أمام المطبعة يقول : «انظروا ماذا فعلت ، زيدوني ورقا وحبرا ما أحمق التصوّرات الكئيبة أحيانا . كان يقول «فضيحة تكفيهم . . قصّة مثيرة ستفجّر الرعب في قلوبهم» ثمّ بعد ذلك ماذا يحدث ؟ يدافع عن مصالح التجار ويمدح الاستثمار الأجنبي .

كان شكري عبد الرحيم يستعدّ للتحوّل إلى الضفّة الأخرى . كان أمامها يضع مرفقيه على الطاولة في مقهى شهرزاد :

ـ هل انتهى المقال؟

ـ أيّ مقال؟

ـ علوان بوزيد

اشتغل بعلبة الوقيد يفتحها ثمّ يخرج عود ثقاب ويشعله

ـ إنه موضوع وكفى

ـ ماذا تعني ؟

ظلّ ينظر من خلال النافذة ، كانت الغيوم تحجب الشّمس في سكون ، لا رياح ولا عواصف . أغصان الأشجار ثابتة لا تتحرّك والناس في المقهى يحتسون فناجين القهوة في غيبوبته ، كانت عيناه مساحة هدوء .

ـ لنترك علوان بوزيد ، لقد تعبنا .

ـ ماذا تقصد ؟

ـ آخذك وتأخذيني ، لنرتح قليلا ، الفتور يعتريني ، هذه هي الحقيقة .

فكّر يومئذ طويلا « قد يحتاج الانسان إلى وقفة وقد تكون طويلة أو قصيرة ولكن من ذلك قد يكون في حاجة اليها » هي أيضا أحسّت أنّها في حاجة إلى وقفة ، رفاقها في التّنظيم أحسّوا بذلك ، أصبحت لا ترغب في الجدل ، ثمّ تغيّبت عن الاجتماعات ولما أوقفت ظلّت صامتة لم تقل شيئا ثمّ أطلق سراحها ، لقد كانت مهزلة : هذه البنت صدمت لم تعد تعرف ماذا تريد وماذا تفعل ؟ قبل التوقيف عادت إلى الرفاق ، كان الجدل عنيفا « الجامعة محاصرة ، لا فائدة في أيّ عمل ، ثمّ الصراع سيكون عنيفا ، الحقد يجمع بيننا

ـ ماذا سنجني ، من أجل ماذا نتقاتل ، الناس ليسوا معنا ، الناس في الشوارع والحقول والمصانع والادارات من أجل من؟

وتعمّق الجدال وصار عنيفا . كان صخب المدينة يعيد اليها هدوءها . عدواه انتشرت ، شيء ما في هذه العلاقات لم يكن واضحا . كبير التجّار ضرب ضربته القاضية ، عرف كيف يقطع الحبل في الوقت المناسب .

ظلّت تنظر اليك بعينين ثمّ قالت :

ـ هل كان حقيقة هدفي ؟

ولكنّها انتفضت :

ـ أيعقل انّني عشت حياتي كلّها بلا هدف ؟ الجامعة والسّجن والاضراب والشرطيّ الذي صفعني؟

هدأت قليلا ، مدّت يدها إلى العلبة واستخرجت سيقارة ودخّنت .

ـ هكذا إذن يقتل علوان بوزيد ؟

نهضت وأسندت ظهرك إلى الحائط

ـ خطأ ، علوان بوزيد مات مرّتين

نظرت في عينيها ، لأوّل مرّة أحسست انّك تكتشف البحر ، ما أجمل البحر في العينين ، وما أعمق البحر في العينين .

ـ صحيح مات علوان بوزيد . وإذا لم يقتله شكري عبد الرّحيم فأنا قاتله .

ظلّت مشدوهة :

ـ يا الاهي . . . أيحصل هذا أيضا ؟

أحرقت السيقارة :

ـ نعم يا حياة أقتله أنا وتقتلينه أنت؟ ما هي قصّة التاريخ هذه ، علوان بوزيد عاش وتعب وناضل ومضى ونحن ؟

أعادت السيقارة المحروقة ، مدّت اليك العلبة ، تناولت السيقارة ونظرت في عينيها من جديد «يا الاهي ، ملح البحر يغمرني ، يقرصني الجرح ، ما ألذ قرص الجرح . . .»

ـ علوان بوزيد مضى ، وشكري عبد الرحيم مضى ، هذا لا يهمّ ، قد نتألّم لأحباب فقدناهم لكن هذا لا يهمّ الملاّح يتعب والسّفينة قد تتحطّم ولكن البحر هو البحر . . ملح البحر يقتل الدودة أيضا . كانت الغرفة مضيئة ، عبر النافذة كانت المدينة الكبيرة ترسل فوانيسها وكان الظّلام كالستارة الشفافة السوداء وعالى ضفّة المدينة الكبيرة يقف البحر . البحر . الأمواج ترتطم على الصخور ، تتحطّم وتتناثر ولكنّها تعود والصخور تتآكل عبر الزمن ، تمحي تذوب . نظرت في العينين الزرقاوين ، يا الاهي البحر يغمرك والأمواج ترتطم على صدرك الكسر يدغدغ

ساقك والجرح يقرصك، يا الاهي ما أعمق البحر! حرّكت ساقك، تأوهت، كانت الآهة من الأعماق «السمكة هربت ويجب أن تتعلّم كيف تصطاد، بنت التاجر تزوّجت وإذا رأتك الآن لن تعرفك، لن تذكرك، أنت الآن صفحة من ماضيها، صفحة جميلة أو رديئة ولكنّه الماضي الذي يجب أن يطوى وحبيبته في بيت التاجر ولم يكتب اليك ابوك. أمّا التي كتبت. خالك أعطى البنت يا ولدي، حبيبة كما تعرفها، حاولت ولكنّها لم تفلح، لقد بكت طويلا ولكنّ خالك لعنها ولعنك وستزورك قريبا «خالي يا خالي! : أنا أزوّج ابنتي من يقاوم الحكومة؟ يا خالي! : أنا لا أقاوم أحدا، أنا أقتل الدودة التي في الداخل أريد أن أفعل مثل أبي يفتح الأرض ويرسل الشمس وتموت الدودة، دودته مكشوفة، أمّا دودتي فهي في الداخل ولكنّي سأقتل الدودة التي في الداخل» حرّكت ساقك وتأوهت من جديد، مدّت يدها إلى الساق، بركة الحبّ فاضت لامت:

ـ هذا ثمن عنادك، العمل في الميناء! هل نحن قصّرنا في حقّك لكنّه العناد أرني، أرني

وعندما انحنت على الساق مسكت رباطها

قلت:

ـ لا تخشي، الكسر سيلتئم

وأصرّت على أن تفكّ الرّجل وتداويها، قالت:

ـ ماء ساخن وشيء من الملح في الماء.

كان الجرح عاريا، اليد الناعمة تركت أثرها، دفء العشيرة عاد يغمرك ماء البحر ليس في البحر «ماء البحر يعمّدني، ملح الأرض يعمّدني» جاءت بالماء السّاخن ووضعت المنشفة المبلّلة على الساق، كانت العين الزرقاء بحرا، أحسست بفعل الملح في الساق، الملح يدغدغ الجرح، يقرصه، يقتله «يا الاهي، شيء ما جعل علاقاتي من الأشياء، من الناس حولي خاطئة أحببت كلّ شيء حولي أحببت الناس الذين حولي» لكنّ حبّك وحده لا يكفي لا يلغي الخطأ يا ابنة الخال التي تنتظر

عرسها وعريسها أحد التجار الكبار، يملك نصف البلد ويملك مقعدا دائما في المجلس البلدي، يا ابنة التاجر التي ترعى ولدها وتسوق السيّارة بمفردها! ابنة الخال كابنة التاجر ستتألّم قليلا، تبكي ولكنّها فيما بعد ستنسى ستكون لها حلما بائسا ولكنّه حلم على كلّ حال شيء ما جعل علاقاتك خاطئة مع الناس، مع رفاقك في السجن، مع علوان بوزيد وضعت كفّك على يدها المبلّلة، نظرت اليك، ارتطم ماء البحر على الصدر وانكسرت الأمواج على الساق. تاهت النّظرة وشردت ثمّ سقطت، حرّكت كفّك على يدها، تناولت أطراف أصابعها أدنيتها من شفتيها، لثمتها «يا الاهي الدودة في الداخل تسقط، تذبح تموت. ارتمت فوق صدرك، سحقت شفتيها، أدرت زرّ القميص حلمة النّهد استيقظت، ثارت، مزّقت الثّوب وخرجت قاومت، الحرب على الصّدر قامت ثمّ سقطت الجمرة في البحر. «يا بنت الخال، بعلك التّاجر الكبير ومالك المقعد في المجلس البلدي، قطع النّخلة التي حفر عليها الحرف بالدّم.

يا بنت الخال، أبوك الذي أعاد أملاك جدّك وأمسك السّلطة بقبضته أحرق النخلة ويا بنت التاجر، يا زوجة المقاول المحترم أنت لم تعط شيئا، أنا ما أخذت منك شيئا، المقاول وحده أخذ كلّ شيء» تمزّق القميص والتصق الجسد بالجسد خارطة هذا العالم عرفتها، صحاريها، بحارها، كهوفها، عرفتها، خارطة هذا العالم عرفتها، جبالها، سهولها، براكينها قامت القيامة، روائح الند والبخور والجاوي واسترخى الجوادان بعد تعب الرّحلة.

قالت :

ـ أحدث ما حدث ؟

أدخلت أصابعك في شعرها، عاودك الاطمئنان

ـ ما يجب أن يحدث، يجب أن يحدث، يجب أن تموت الدودة في الدّاخل.
كانت فوانيس المدينة تضيء الشارع الكبير وكانت النافذة تفتح على الشارع الكبير وضممتها إلى صدرك وبدأت الرّحلة الجديدة بعد الراحة من التّعب.

جاءك الرّفيق في الميناء كالعادة وهذه المرّة مدّ اليك ظرفا قائلا :

ـ هذا ما جمعناه اليك كنّا نودّ أن نجمع أكثر، لكن هذا ما في الامكان على كلّ قد يكفيك في انتظار حصولك على التعويض ، لقد قمنا بكل الاجراءات القانونيّة .

لم تستطع أن تردّ بل أحسست وأنت تمدّ يدك إلى الظّرف أن الهدية رغم تواضعها أكبر من أن تصفها ، أن يعطي الانسان رغم فقره أن يعطي من خبزه اليومي ، من لقمة الأطفال فتلك التضحية الكبرى وسألته عن الحال في الميناء فضحك قائلا :

ـ الميناء دائما ميناء سماسرة وقوادون وضعفاء حال كما رأيتنا

داعبته هذه المرّة قائلا :

ـ إنّه ميناؤكم ، خبزكم وزيتكم منه .

ـ ومع ذلك فهو يمتصّ دمنا في كلّ يوم وكذلك عرقنا .

ـ العرق ينزّ في كلّ مكان .

ـ ولكنّنا نريده أن يسقي أرض البلد .

كان رفيقك يعني ما يقول ، يعني ما يقول ، عرف البلد يبقى في البلد ولا يسقي بلد الغير، تراب البلد يبقى في البلد وملح البلد يبقى في البلد . وجدت هذه المرّة فرصة الضّحك والمزاح . كنت تريد أن تضحك اليوم ، منذ زمن أرهقتك الوحدة قتلتك كانت تذهب بك الخيالات بعيدا ، الوجع في الساق وفي الدّماغ :

ـ عرقك هذا ذكّرني بقصّة أبي مع الماء

ضحك رفيقك كان يريد أن يسمعك تتحدّث وتروي القصّة

«كان أبي في أيام الشتاء بعدما يسقي الأرض يلعن أصحابه الفلاحين كنت أسأل «لماذا هذا الغضب ؟» كان غاضبا فعلا «الماء يذهب إلى البحر هكذا ولا أجد يسقي الأرض» ولكنّي أجيبه متعجّبا «لكنَ الفصل شتاء والأرض ليست في حاجة إلى

الماء» فيلعنني غاضبا «فلتمت الأرض بالماء ولا يذهب الماء إلى البحر» كان منطق أبي يعجبنيَ أحيانا ولذلك رفعت صوتي «ليذهب الماء إلى البحر إذا لم تكن لنا سدود» ولكن أبي ضحك هذه المرّة كان يعتبرني غبيّا «يا ولدي فلتخزنه الأرض في بطنها ولا يذهب اليهم» وأسأل من؟ «الناس وراء البحر يا ولدي انّهم قادرون على سرقة الماء العذب من الماء المالح» وعبثا حاولت أن اقنعه أن الأمر ليس كما يرى فهم قادرون على تصفية ماء البحر. البحر أمامهم وهم قادرون ثمّ أن مياههم كثيرة ولا حاجة لهم في البحر ولكنّه أصرّ «لقد أخذوا منّا كلّ شيء ولا يجب أن نعطيهم الآن شيئا»

ضحك رفيقك من جديد، أحسست أنّك بدأت تخفّ من عبء ثقيل وفجأة تغيّر الموقف. ما كاد رفيق الميناء يخرج حتّى دقّ الجرس أحد الرّفاق القدامى بالباب. كيف علموا انّك هنا ومنذ زمن لا شيء عن أخبارهم تشرّدت ومرضت وشفيت وهم ليسوا هنا وفي النّهاية يظهرون. ابتسم الرّفيق القديم قائلا:

ـ كيف الحال؟

أدركت ما يجول بخاطر ضيفك؟

ـ على ما يرام، ماذا تريدون؟

ابتسم الرفيق من جديد وقال:

ـ نريد سلامتك

ـ سلامتك

ـ شكرا

وعادت بك الأفكار بعيدا، هناك في يوم ما بين جدران السجن الأربعة، كان الرفيق جالسا أمامك «الزّرع سينبت وسينمو ولابدّ للملح أن يذوب في الأرض» «لكن متى يذوب الثلج؟» «الشمس ستشرق، الشمس مهما طال الفجر، وسيذوب الملح في الأرض، وسيخضر الزرع وستظهر سنابل الزرع»

لكنّك كنت تسكت ، كانت الدودة وقتئذ تنهش في الداخل . تناول الرفيق كأس الشاي الموجود أمامك ، ثمّ قال :

ـ الرفاق يريدونك ، نحن نريدك معنا . . . الشمس ستشرق .

ـ لكن

ـ لا تقل شيئا . نحن نعرف كلّ أخبارك ، لقد أردنا أن نختبرك أمام التجربة .

خرج الرفيق مودّعا ، كانت ابتسامته على شفتيه دائما ، وظلت تفكّر ، يدك على خدّك ، أن تكون أو لا تكون «ليست هذه نقطة البداية ، الحياة كهذه الأرض بجبالها وسهولها ، بمرتفعاتها ومنخفضاتها ولكن المدّ في البحر والأمواج على الصخور تهشّم؟ جلست أمامك ، البحر في العينين والأمواج على الصّدر تتحطّم . قالت لك :

ـ أفهم فيما تفكّر

ـ أن تكون أو لا تكون ، قوليها

ـ أنا لا أقول ، أنا أفهم

ولكنها كانت تريد أن تقول لك أشياء كثيرة «نعم ، ليست نقطة البداية ، أنا أيضا سرت وحدي ، لم أخدع ، انّما عشت جرّبت ، كان شكري عبد الرحيم تجربتي ، مسكني من يدي ، قال لي : أحبّك ، العطش في صدري ، ثمّ ارتوى فجأة ارتوى ثمّ وقف ، ليس في الأمر خيانة أو طعنة من خلف لقد وقف . وعندما يقف القطار يجب تجديد البنزين كان يقول دائما في حالة ضعف «الثورة تأكل أطفالها والنّظام يأكل أطفاله أيضا وأنا لا أريد أن أؤكل» نعم يجب تجديد البنزين وأنت بنزينك لم ينضب يا حبيبي» أبوك وأمّك وحبيبة بنت الخال وبنت التاجر وتصوّر أمّك وقد خاب أملها ، ولدها سافر ولم يعد ، الوظيفة وضاعت بنت أخيها ، زوجة أحد أبناء الفلاحين الكبار وتصوّرها تجلس خائبة ، منهارة أمام خالك ، ذلك الرجل صاحب الأمر والنّهي وصاحب السلطة في المدينة :

ـ والله وعملتها يا خويا ، البنت أحببتها ولكنّك وهبتها لرجل ليس من لحمك ودمك .

وتنتفخ أوذان خالك كعادته عندما يحسّ أنّ في الأمر خطرا .

ـ يا أختي ولدك لم يعد ولدك ، انّي اقسم انّه قد فقد عقله وهذا جزاؤك وتريدين أن أعطيه بنّي ، بنتي لِلّة البنات تتزوّج ولدا مارقا على القانون . وتصوّرها وهي تبكي ، دموعها على خدّها ، تبكي وهي تفكّر في قول أخيا ، أخوها لا يمكن أن يكذب «هكذا يا ولدي ، ربيتك وسهرت الليالي من أجلك ، ثمّ في النهاية تعملها فيّ ، ما لنا ومال الحاكم يا ولدي ، يستاهل الحاكم ، علّمك وأعطاك المنحة ثمّ تعضّ الضرع الذي منه رضعت . أمّك أنا يا ولدي ، أنا أمّك التي انتظرتك طويلا بكيت صلّيت من أجلك ، من أجل أن تكون موظّفا مثل خالك ، تتحكّم في رقاب الناس ، يحترمك الغني والفقير تعملها فيّ ؟ وتصوّر أباك وهو ينصت كلّ ليلة إلى هذه الأغنية ، تصوّره وهو يضع اصبعيه في حكّة النفّة ثمّ يتفل صارخا : «اللعنة على أخيك يا مرا . أخوك ؟ ماذا فعل لنا أخوك ؟ لقد نهبنا ونهب البلد كلّه ، عاد يصول ويجول كما كان يفعل أبوك منذ زمان . ثمّ ولدك ، ماذا فعل ولدك ؟ ولدك الآن رجل ، دعيه لشأنه» ثمّ يبعد عنه حكّة النفّة ويخرج علبة السقاير الحلّوزي ويخرج السيقارة منه وهو يلاطفها يخشى عليها من الانكسار ثم يشعلها ويمتصّ دخانها في نهم ويضيف عبارته في زهو وخيلاء «عندما أطردنا الاستعمار كنّا شبّانا يا مرا» ويمتصّ دخانه من جديد ويضيف وقد سافر الخيال به بعيدا «أتذكرين يا مرا عندما جئتك جريحا وقد لحقنا علوان بوزيد إلى الجبل ، كان الدم يفور في جسمي ، يغلي ، كنت قادرا على هدّ الجبل بحاله» وتصوّر أمّك وهي تعود إلى الماضي فيعاودها الغضب «يعني خلاص انتهينا ؟ . . اعطينا وانتهينا ؟» فيضحك أبوك وهو ينظر اليها متغزّلا «لا يا مرا فيك الخير والبركة لكن يجب أن نفهم الولد»

لكن عندما قدم الليل عاودك الحنين إلى مدينتك البعيدة ، قاقو اليهودي

ملاذك، هذا البحر من الذكريات المتدفقة التي لا يحدّها حدّ، قاقو المحاصر بذكريات الماضي البعيد والقريب، كنت تريد أن تشرب معه كأسا وأن تفرغ له ما في صدرك، المفاجأة اليوم كانت عنيفة، أنت الآن حرّ بشكل عنيف، ولكنّهم يريدون رأسك: شغل مريح وسياحة مريحة واكتشاف أجواء جديدة، يزيدون رأسك هذه المرّة بدون ضجيج، وتنتهي هكذا حياة حمدي رجب، حمدي رجب وأحلام الجامعة والشعارات والسجن، تنتهي هكذا حياتك كلا شيء، ضغطت على الزرّ، لم يفتح الباب، قلت في نفسك «قاقو في قارورته» ضغطت على الزرّ مرّة أخرى، لم يفتح الباب. من خلال ثقب الباب: أيّها الالاه! ماذا حدث؟ قاقو على الأريكة، جالس رأسه مسترخ على جانبه الأيسر. على المائدة قوارير فارغة وكأس لم تفرغ نهائيا، مسكت الذراع. دم سائل من المعصم وتجمّد أيّها الالاه! ماذا تقول؟ قاقو ذبح نفسه من المعصم. على المائدة رسائل مفتوحة منتشرة هنا وهناك، يا علوان بوزيد، ها أنت قد أوقعتني في الفخّ أنت طلبت ثأرك بنفسك، كان لك مع أبيه ثأر قديم، أمّا أنا فلا ثأر لي. قاقو يذكّرني بمدينتي البعيدة ولكنّك أوقعتني في الكارثة. أنا الآن في بيته، خلعت بابه فمن سيصدّقني؟ على المائدة رسائل هنا وهناك بتواريخ قريبة وبعيدة.

«عزيزي قاقو»

ما كان لك أن تسافر وتتركنا وبما أنّك فعلت فلا يهمّ ابنتك صفعت الحاكم العسكريّ على خدّه عندما أراد أن ينال منها ويمكن لك أن تتخيّل الصورة.. يدخل الحاكم العسكري يلاعب عصاه الخيزرانية بأصابعه ويطلب شرابا ويخرج سيقارته الطويلة ويظلّ ينفث دخانه ويتحدّث عن عظمة الدولة... «هؤلاء العرب لا ينفعون شيئا، يملكون السلاح ولا يعرفون استعماله، الأرض ممتدّة لديهم وتظلّ خلاء. هؤلاء العرب لن يصلحون» لكن ابنتك كانت في تلك الليلة أشجع منّي، ألقت المجلّة على المنضدة وسألته:

ـ ومن هدّم لنا الحانة ؟

يضع الكأس على المنضدة ويقرّب سيقارته الطويلة من شفتيه قائلا :

ـ لا تهتمي ، لصوص ، مخرّبون لا غير .

وظلّت مصرّة على موقفها .

ـ انّهم العرب ، أصحاب هذه الأرض قلها .

كاد في تلك الليلة أن ينفلق ، كنت أرى وجهه تحت الأباجورة وقد احمرّ ، وكنت أقرأ ما في مخيّلته :

يهود شرقيون ، اللعنة عليكم عشتم مع العرب ، تتعاطفون معهم ، اللعنة عليكم ، الأباجورة تكشف ذلك الغضب الجنوني الذي كان يعصف بالحاكم العسكريّ لكنّه كتم غضبه ولم يقل شيئا ، كنت أعلم انّه كان يتصيّد البنت لكن البنت يا قاقو ما كانت لتقع بهذه السهولة .

اقترب منها الحاكم العسكري ، نفث دخانه ، ثمّ أدنى شفتيه من خدّها ، ليلتئذ أدركت أن مصيبة في البيت ستحدث ، تباعدت ولكنّه ظلّ عل عناده ، لم أكن أستطيع أن أفعل شيئا ، دخلت المطبخ أعدّ قهوة لتهدأ أعصابي المتوتّرة لكن الحاكم العسكري كان يريد أمرا خطيرا ، ظلّ يتابعها وهي تدفعه وفي النهاية فتح ذراعيه يريد احتضانها لكن ابنتك يا قاقو رفعت يديها وصفعته وكادت المصيبة تحدث في لبيت . اخرج الحاكم العسكري مسدّسه «ابنتك لا تصافح الدولة يا دبرة» وانغرست الرّصاصة في صدرها ، نعم في صدرها ، نعم في صدرها يا قاقو»

« السيّد قاقو :

ـ ابنتك قتلها الحاكم العسكري ، والحاكم العسكري سقط مع الحكومة القديمة وزوجتك الآن عاملة في أحد المصانع تخرج في المظاهرات مع دعاة السلام

وتندّد بالحكومة الجديدة وتندّد بالحرب في لبنان ، زوجتك الآن أصبحت من نوع آخر . . .

أحد معارفك . . . »

«عزيزي قاقو،

ها أنا في حاجة اليك . الظلم في هذه الدنيا لا يزول والدنيا جنّة ونار ، وها نحن نحتجّ ونرفض ونكافح ولكنّنا موجودون رغم كل شيء . . .

المخلصة . . .»

ماذا تفعل ؟ أنت القاتل رغم أنفك ، وهذه الرسائل لن تنفع شيئا بل هي أيضا ستأخذك إلى المشنقة ، قاقو اليهودي لم يقطع صلته بزوجته وبالأخبار هناك وحمدي رجب يعاشر يهوديا ذهب إلى هناك . . .

هناك مبرّرات للقتل . علوان بوزيد صديقك كانت له مبرّراته عندما قتل ، له ثأر قديم مع ذلك اليهودي في المدينة ، القابع على أريكة يذيب الذهب والفضّة ويجمع بائعي الدّجاج والخبزة المردومة لتلقّط أخبار الألمان في الواحة المحيطة بالمدينة ويجوب الحوانيت يجمع الأموال ويرسلها إلى هناك . هو له إذن مبرّراته وأنت ؟

أغلقت الباب كما وجدته وتركت بقيّة الكاسيت ترسل أنغامها الشرقيّة وخرجت . بقايا الألم لم ينفعها ماء حياة وملحها ، استلقيت على الفراش وتهت في خيالاتك وعندما استيقظت في اليوم الموالي وجدت الشرطي عند رأسك وحياة واقفة كالحجر

«يا الاهي ماذا حدث ؟» سرى الخبر بسرعة رأوك تدخل إلى بيت قاقو لاشك ورأوك تخرج منه لاشكّ أيضا ، أنت لا تنكر . لكنّك لم تقتل ، كنت تريد أن تقول

للشرطي الواقف عند رأسك «أنا لمأقتل قاقو أنا الذي أعرف قصّته وقصّته هي التي قتلته» ولكن لا تتعب نفسك لأنّ هذا الشرطي لن يفهمك ولن يستمع اليك .

أخرجك من فراش المرض ووضعك في سيّارة كهذه ثمّ اندفع بك إلى الشارع نظرت إلى الوراء ، خلفك كانت حياة الريحي صامدة ، قالت لك :

«أنا وراءك يا حبيبي ، كلّنا وراءك يا حبيبي» ذاك الصقيع الذي حطّ في القلب من زمن البرد والثلج يتبدّد ، الدفء . في هذه اللحظة وحدها أحببت العالم جميعا ، نسيت حقدك الدّفين ، أحببت العالم جميعا ، أباك وأمّك والخال وابنته وبنت التاجر وعلوان بوزيد الذي جعلك أمام المجابهة الجديدة وهذا اليهودي الذي تعذّب في غربته وحياة الريحي بالخصوص ، الآن خرجت من سجنك ، أذبت الملح في الأرض لقد خرجت من السّجن وأذبت في لحظة كلّ صقيع الّنيا ، جدّدت الحياة في دمك . . «يا حياة يا حبيبتي افرحي ، حبيبك فكّ أسوار السّجن وخرج ، حبيبك تعلّم كيف يصطاد السمكة ، حبيبك تعلّم كيف يذيب الملح في الأرض» عندما وقفت للمرّة الثانية أمام القاضي حاول أن يرأف بك ، قال لك «سنخفّف عليك ، أنت على كل حال ولدنا . أنت لم تقتل اليهودي . . لكن كيف تعلم عنه تلك الأسرار الخطيرة ولا تعلم الدولة . . كلّ فرد في هذا الوطن يجب أن يكون في خدمة الدّولة» سكت هذه المرّة ، تيقّنت هذه المرّة انّهم يريدونك من جديد أن تكون في ذلك القفص الحديدي ، أشياء ستقع ويريدون إبعادك ومن أجل أن تسير الأمور على ما يرام يجب إبعادك ، ومن أجل أن تسير الأمور على ما يرام يجب إبعادك عن الحيّ وعن الميناء : أشياء خطيرة ستقع لا شكّ وإلاّ لما جازفوا بايقافك واعادتك إلى المعتقل بعدما رفضت أن تكون في خدمة الدّولة . أنت الآن في طريقك إلى المعتقل ، الحارس يلعن السائق الذي لا يسرع كثيرا . تكليفه أبعده من عاهرته التي تنتظره في البيت وأنت الآن تستعيد آخر ما بقي من ذكرياتك البعيدة والقريبة . سيقارة الشرطي

أعادت عقلك إلى النّشاط ، ماذا ستجد في المعتقل؟ ستجد أصدقاء جددا . ولكنّك ستجد لصوصا ومهرّبين وسفاحين وقتلة فأنت ماذا ستصنع في هذا الخليط من الخارجين على القانون ؟ لا يجب أن تفكّر في الموضوع ، كلّ شيء في أوانه أنت الآن في السيّارة والسيارة تهتزّ بك على هذه الطريق الحجرية الوعرة . وستصل الآن وتسلّم الحاجة إلى أصحابها .

بدأ السائق يلعن سيّارته . بدأت الشمس تغيب والسيّارة في هذه الطريق الوعرة تهتزّ ، هاهي تهتزّ من جديد ثمّ فجأة يقف المحرّك . يصيح الشرطي ، يلعن السيارة ويلعن مجيئه إلى هذا المكان وعبثا يحاول السائق أن يعيد المحرّك إلى ضجيجه . لا فائدة . يخرج السائق إلى الطريق يبحث عن سيّارة توصله إلى أقرب مركز أمن ، ها أنت الآن وحدك مع حارسك ، بدأ ينظر اليك في خوف ، أنت الآن في الخلاء ، الطريق الحجرية الوعرة خالية الاّ من بعض الكلاب السائبة وأنت وحارسك ، دماغك بدأ ينشط ، إنه يحبّ هذه المغامرات التي تكون بدون تخطيط مسبّق ، نظرت إلى حارسك ، دماغك بدأ يضغط شرع في اعطاء أوامره ، أنت الآن تطلب سيقارة ، نظرت إلى الطريق ، السائق بعيد يلهث عسى أن يعثر على سيّارة في هذا الخلاء مدّ اليك سيقارة ، وفي لحظة اشتغل الدّماغ في عنف ، نزعت السّلاح فاستلقى الشرطي على الأرض كالمصعوق قلت :

ـ لا تخف لن أفعلها ، قف التحق بزميلك

في هذه اللحظة قفز الشرطي وأخذ يعدو . نظرت إلى الخلاء وانطلقت القيت السلاح بعيدا وظللت تجري . في أيّ مكان أنت الآن؟ أشجار ونبات وبعض الكلاب السائبة . مضى الليل كلّه وأنت تجري . نظرت إلى السماء . بقايا نجوم ستنطفىء بعد دقائق . ظللت تسير ببطء القدمان ثقيلتان والكلل يسري في كلّ قطعة من جسدك ويصل الجفنين استوت الاشياء أمامك . الحياة والموت سيّان . رجال الأمن وراءك يبحثون بكلابهم ولكنّك لم تعد تجد وقتا للتفكير في شأنهم . عند

منحدر الوادي شاهدت كوخا مهجورا دخلت، كوم من القشّ فوق بعض الأخشاب السميكة قلت «هذا كوخ اللّصوص أو قطّاع الطرق ولكن هذا لا يهمّ» خرجت تطمئن نجمان أو ثلاث في كبد السماء ولا غير. جمعت كومة من القشّ وسددت فتحة الكوخ واستلقيت. أحسست أن القشّ فراش من ريش النعام وفي لحظة أخذك النوم بعيدا كحجر ملقي في أعماق الوادي. ها أنت الآن خارج الكوخ الشمس تكاد تغيب من جديد. أمعاؤك بدأت تنخرك فعلا. سنة كاملة قضّيتها في المدينة الكبيرة تتسكّع بدون عمل ولكنّك لم تجع أنت الآن جائع. قبل اللّجوء إلى الميناء كانت المساعدات تأتيك من الرفاق وحتّى اليهودي ساعدك ولم يطالبك بشيء. وماذا تريد؟ المدينة الكبيرة رغم غربتك فيها لم تكن شقيّة. في أيّ مكان أنت الآن. أيعقل أن يكون هذا الحقل مهجورا؟ الجوع يمزّق أمعاءك فعلا. بين الأشجار سربت. بعض الزياتين ولا شيء غير ذلك فماذا ستصنع لهذا البطن المتألم؟ يجب أن تصبر. غابت الشمس نهائيا. لم تكن تعلم أنّ الليل مظلم بهذه الصورة سرت كامل الليلة الماضية ولكنّك لم تفكّر في هذا الظلام الدّامس. كنت تسير، تجري مرة وتهرول أخرى وفي كلّ لحظة تتخيل أن رجلا مسلّحا سيغرس رصاصة في صدرك وتنهار على حجر وتموت كالكلب في قلب هذا الخلاء الواسع.

ظللت تسير بين الزياتين التي تبدو من خلال الظلام كالهيا كل الواقفة. ظللت تسير، تعبت رغم الجوع والعطش عاودك التعب عدت إلى الكوخ. جلست. كابوسك القديم عاد. ماذا عساهم يفعلون؟ الشرطيّ أعلم مراكز الأمن. المخبرون الآن في كلّ مكانيسألون عنك الكبار والصغار. مجرم خطير خرج على القانون وتصوّر الآن القاضي الذي أمر بحبسك وهو يضرب كفّا على كفّ «انظروا يا سادتي هذا الرجل الخطير. رصاصة في الصدر حلال فيه» علوان بوزيد أوقعك فعلا، يقول لك «أنا قبلك سجنت وتعذّبت جعت وعطشت ولكنّي صمدت إلى النهاية، أنا قبلك عشت في مكان كهذا، نمت على الحجر وداهمني الظلام، لكنّي بقيت صامدا إلى

النهاية وها أنت تقف في الطريق بسرعة، تتعب بسرعة، تخشى على نفسك من السجن ومن ألم السجن. حريّة واليد على الزناد أفضل من سجن ومذلّة. السجن يتعب وحبلك ليس طويلاً ولكنّك الآن وأنت خارج السّجن ماذا تستطيع؟ ماذا يمكن لانسان في هذا الخلاء أن يصنع؟ في السجن رجال تتحدّث معهم، تجادلهم ويجادلونك يسنّبونك أحيانا، لكنّهم قد يفهمونك وتفهمهم. يفتحون لك قلوبهم وتفتح لهم قلبك وفي السّجن يتفتّق خيالك عن أفكار وأفكار ومع الأفكار تفهم التجربة الجديدة وتحلّل أبعادها. ولكنّك الآن في هذا الخلاء ماذا ستصنع؟ تصوّر الآن ماذا بقي لك. أخبار المدينة البعيدة تاهت. كيف ستجدّد صلتك بها؟ صديقك اليهودي عاد بك إلى أغوار النفس البعيدة ولكن هاهو بدون أن يشعر رماك في داهية. هي فقط حياة الريحي، تصوّرها الآن والمخبرون يتتبّعون حركاتها وهي تبحث عن الرّفاق وتعلمهم بما حدث. تصوّرها الآن والألم يعصر دماغها وكأنك قطعة في جسدها أنت الأمل الذي بقي في طريقها. أنت نقطة البداية بعد التجربة التي أفلست.. تصوّرها وهي تطرح مسألة الحسم ولكنّها فعلا حسمت. هي معك بأخطائك وانفعالاتك بحبّك الكبير وعذابك القديم، بصفعة المعلّم وسخرية الخال وخيانة بنت التاجر وضعف بنت الخال. هي معك ولكن ماذا تستطيع أن تفعل؟ لكنّها هي ستعيش بحبّك ويكفيها ذلك. نعم هي:

كملح الأرض هي
كالسماء -
كالنجم
كحبّة القمح في فريقا
كالشمس التي تحرق دودة الحقل
كالملح الذي يفني دودة الحقل
كالعرق في الحرث

لكنك في أعماقك صحت : «أنا لست علوان بوزيد ، نعم لست علوان بوزيد ، أنا حمدي رجب ، لي قضيتي وتجربتي وأخطائي . حلمت بك كثيرا يا علوان بوزيد . سرت معك في أوديتك وسهولك ، على جبالك ورمالك . أنت أيضا لك قضيّتك وتجربتك وأخطاؤك ولكنّي أنا الآن حمدي رجب فعلا أتحسّس طريقي بنفسي» . من جديد عاد علوان بوزيد يحاورك ، يضعك هذه المرّة أمام التجربة القاسية وكلّ تجربة جديدة معها مغامرة جديدة وخوف جديد . يجب أن تهرب . الشرطي ينتظرك في كلّ مكان من هذا الوطن العزيز وها أنت الآن تتوهّم أن في كلّ شبر من هذه الأرض مخبرا ، سيخرج من الأعماق كالعفريت وراء زيتونة قائمة سلاحا سيطلق رصاصة في صدرك ، يجب أن تعبر الحدود ، أن تتسلّل كمهرّب الأفيون والسلاح عبر الممرات الصحراوية وتتعرّض للنّهب والقتل أيضا وعندما تجتاز الحدود تعدّ نفسك للهجرة الأبدية تمكث أياما قد تطول وراء الحدود ، تبحث عن عمل أي عمل ثمّ تعبر البحر وعندما تصل الضفّة الغربية تستقيم لك الحياة ، لن تكون وحدك المهاجر . هناك في باريس لن تكون غريبا ستجد عبادا من خلق الله جميعا ، جاؤوا من كلّ حدب وصوب هاربين من الغربة والقهر . الغربة القاتلة أن تعيش مقهورا في الدّاخل ، في الأعماق . الوطن ؟ ما قيمة الوطن تعيش فيه مهانا يلهث وراءك شرطيّ في كلّ مكان . ما قيمة الوطن تعيش فيه جائعا وعرقك يمتّعه غيرك . الوطن ! وتصوّر الآن قاضيك في قفص الاتهام وتصوّر نفسك تقاضيه باسم آلاف المعذّبين والمطرودين مثلك «يا سادتي هذا الوطن لنا جميعا ، نقتسم فيه الجهد والعرق والخبزة نعم الخبزة يا سادتي . هذا القاضي أمر بسجننا جميعا ويرفض التصالح» وتصوّر هذا القاضي وهو يرتعد في قفص الاتهام وتصوّر الناس وراءك وهم يصيحون فيك يطالبون برأسه وتصوّر علوان بوزيد يخرج من الأرض كالعفريت ويصيح بك «جئتك من أعماق الأرض طالبا ثأري ، أنا مثله أرفض التصالح والتناسب ، ثأري قديم وجرحي من

الدّاخل ينزف ، أعطني حقّي » وتصوّر نفسك في هذه اللحظة الحرجة بين المطرقة والسندان ، بين القاضي وأصحابه الحقّ ووراء حياة الريحي التي تصيح «أنا اخترتك للحسم ، أكشف وجهك يا حمدي رجب » ما أرهب هذه الصورة ! خيالك الآن يقفز . تقلّبت في الكوخ على جنبيك . النوم يقف على جفنيك كالعفريت ، يطاردك لكنّه لا يوقع بك ستنتظر الصباح وعندئذ ستلملم نفسك وترحل في اتّجاه الحدود وهناك عندما تصل ذات يوم ستقاوم كما يفعل آخرون مثلك تركوا الوطن ولكنّك الآن تضحك . هذه الفكرة أضحكتك ، تصوّر نفسك في شارع سان ميشيل تقف مع المتظاهرين الذين يصيحون ويطالبون بالحرية والعدالة والاشتراكية ثمّ تسير معهم إلى احدى السفارات وتدرك أن القضيّة واحدة وأن وطنك ليس وحده في مشكلته وماذا بعد ؟ ستجد نفسك في حانة تذكّرك بالوطن وتسمعك أغنية مهاجرة عن الوطن ولكن ماذا بعد ؟

وجدت نفسك يقظا ، انتعلت حذاءك وقصدت الجهة الشرقيّة في اتّجاه الحدود ، ظللت تتحاشى الطرق المعبّدة وظللت تسير ، أشرقت الشمس الآن وبدأت شيئا فشيئا تتّجه نحو كبد السّماء ، من بعيد لاح لك شبح رجل يركب حمارا ، ماذا ستصنع الآن ؟ هذا أوّل لقاء بشريّ بعد هروبك من حارسك ، أيجوز أن يكون الرّجل مخبرا أبدع في تنكّره ؟ الأمر يبدو بعيدا المخبرون لا يعرفون هذه الطرق المهملة ، لكن الحذر واجب يا حمدي رجب لقد أدركت بعد تجربتك القاسية أن الحذر واجب ، تركت الممرّ وأوغلت في الخلاء لكن الحمار ظلّ يسير والرّجل يلتفت إليك ، بدأ الخوف يدبّ في قلبك من جديد ومن بعيد جاءك الصوت :

ـ يا ولدي إلى أين ؟

ارتعدت هذه المرّة ، بدأ الذّعر يفعر أمره ولكن الصّوت الدّافىء أعاد اليك اطمئنانك

ـ يا ولدي تعال

دنوت منه ، الرّجل شيخ على رأسه مظلّة وتغمر وجهه لحية كثّة .
ـ يا ولدي إلى أين ؟

ماذا تقول له ، وجهه بعث الاطمئنان في نفسك وأذاب قطعة الثلج في صدرك
ـ الحدود . . . الحدود من هنا . . . ؟

وأشرت إلى الجهة الشرقيّة ، ابتسم الشيخ قائلا ؟
ـ ولماذا الحدود يا ولدي ؟

فكّرت . ماذا ستقول له ؟ أتحدّثه عن غربتك وقهرك ؟
ـ من أجل الخبزة يا أبتاه .

نظر اليك بعينين متعبتين .
ـ كلّنا تسعى من أجل الخبزة . انظر إلى هناك ، نعم هناك في القرية ، الناس كلّهم خرجوا من أجلها .
ـ خرجوا من أجل الخبزة ؟

لم يردّ الشيخ ، وخز حماره ومضى وتسمّرت في طريقك
ـ ربّاه الناس في القرية وأنا هنا . . . . .

وغيّرت اتجاهك ، ها أنت الآن تلهث والقرية أمامك ، نعم القرية أمامك والناس وأنت تلهث ، تلهث ، تلهث . . . . تلهث . . . . .

صيف 1985

استدراك

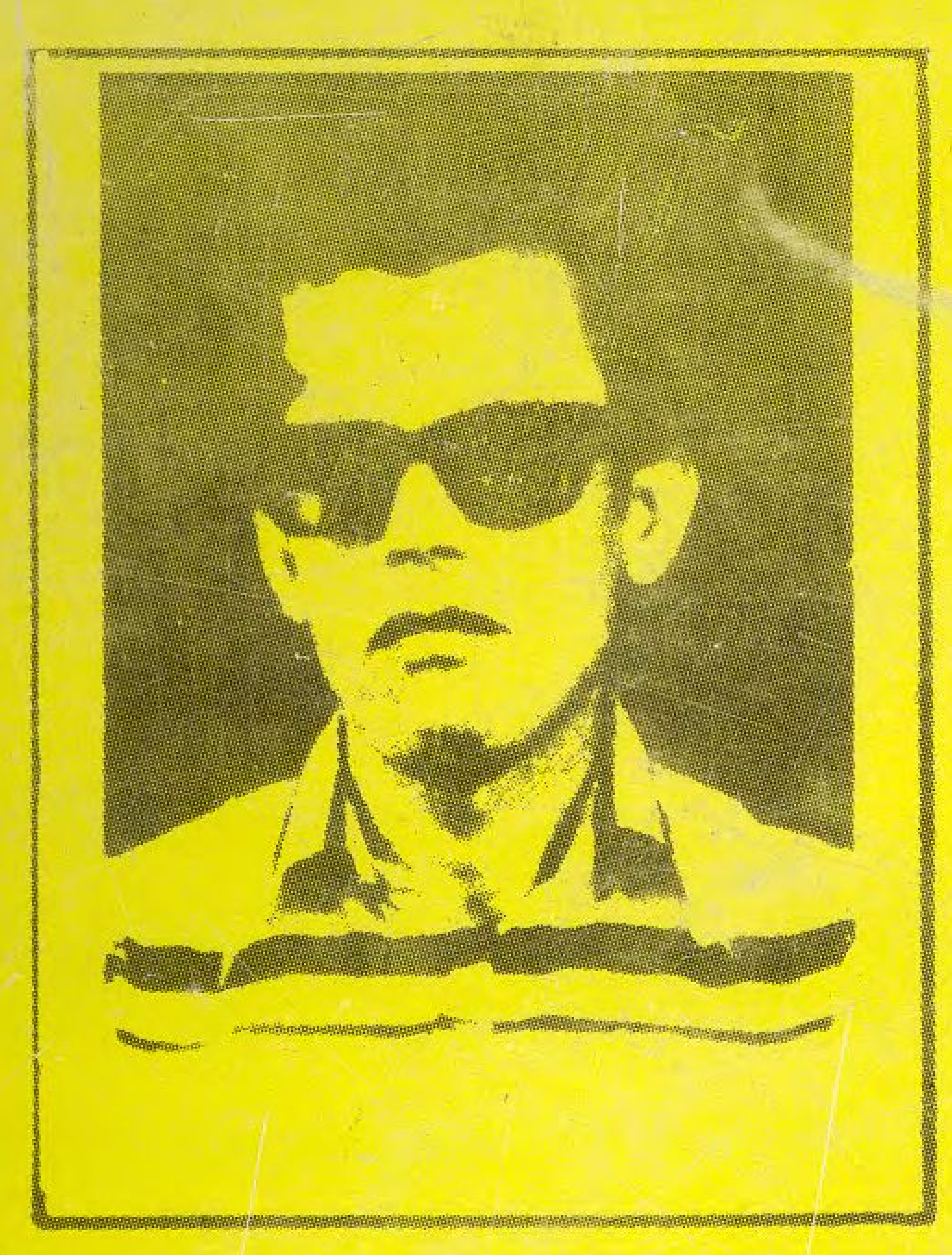
الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
7	2	زميلة في المصيدة	زميلة - في المصيدة
8	2	مخاطب	يخاطب
17	17	انت	كانت
9	14	و قدري	شاري
15	15	حصيبة	مصيبة
22	22	بعودية	بعفوية
10	5	خاللك	خالك
11	2	يجيئوان	يجيؤون
13	2	يعتبرك	يعتبريك
8	8	و اشترى	واشترى
9	9	اضفت اليخ	اضفت اليه
17	17	كالمرا	كالمراة
15	16	رودا	رويدا
19	19	سملك	شملك
16	17	حزنة	حزنه
17	1	زمع	و مع
18	19	ستة	استه
20	4	عباوة	غباوة
8	8	سرحك - او	سراحك - او
21	20	قالعمدة	قال العمدة

استدراك

الصفحة	السطر	الخطا	الصواب
22	7	مشاحاحة	مشحاحة
	12	مساحقة	مسحاته
25	13	المسيرفريد ربك	المسيوفريدريك
26	1	يا نسا	ياناس
28	3	ديبة	ضحية
30	6	ينقط	ينقطع
	8	حكاية	الحكاية
	16	يحدق	يحدث
37	4	ابو تاجر	ابوها تاجر
39	19	ابحث ان	ابحث عن
53	17	لياقة	ليـة
	20	الجبن	الجبل
59	5	ليعيي	ليعدم
68	8	اللميناء	الميناء
71	7	سفر	سافر
72	6	كلل يوم	كل يوم
75	14	و سالت	و سالك
	18	اشراع	الشراع
77	2	اريك	اليك
79	10	نسب الولـ	نسي الولد
78	4	الحضارة	المعا ة

استدراك

الصفحة	السطر	الخطإ	الصواب
99	2	حتي	حيي
	7	ليتحدثون	ليتحدثوا
101	7	الحديثـــة	الحديث
105	6	و يلقب بها	و يلقي بها
	8	رجل لا يفهم	رجلا يفهم
	13	اصغيـــر	اصغـر
107	17	دققة	دقيقة
111	5	تكليفات	تكليفك
	10	ان ترافق	ان تسافر
124	2	اصـــل	اطـــل
	11	يا جلييه	يا جليلة
128	7	تنفع	تنفـــخ
139	8	من ذلك	مع ذلك
141	5	اما التي	امك اللتي
146	3	اوذان	اوداج
	6	اخيا	اخيهـا
147	22	لت	لا
148	17	لا تصافح الدولة	لا تصاح للدولة
150	10	صقيع الدنيا	صقيع الدنيا
155	2	اصحابه الحق ووراء	اصحاب الحق وراءك



المؤلف : محمد الباردي

ولد س 1947 في مدينة قابس

واصل تعليمه الابتدائي والثانوي بقابس

1967 تحصل على شهادة الباكالوريا ثم التحق بكلية الاداب

1970 تحصل على الاجازة في اللغة والاداب العربية

1972 نال شهادة الكفاءة في البحث

1982 نجح في شهادة المرحلة الثالثة

اعد شهادة البحوث المعمقة عنوانه :

« شخص المثقف في الرواية العربية »

بعد التدريس بالمعهد الثانوي المختلط بقابس

عين استاذا مساعدا بدار المعلمين العليا بسوسة

الطبعة الاولى

جوان 1988

الثمن 2000 م

I. S. B. N. 9973 713 02 - 8